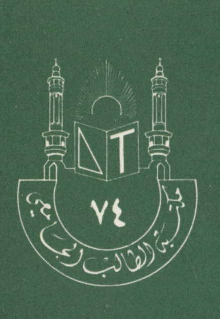


صفات عباد الرحمن في القرآن

دراسة في طريق التفسير الموضوعي

تدبّر
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

مكتبة الطالب الجامعي
مكة المكرمة - العزيزية



صفات

عباد الرحمن في القرآن

دراسة في طريق التفسير الموضوعي

الطبعة الأولى

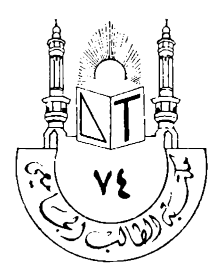
١٤٠٧ هجرية - ١٩٨٧ ميلادية

مكتبة الطالب الجامعي

مكة المكرمة - العزيزية

مدخل جامعة أم القرى - ص.ب ٦٧٤٧

هاتف : ٥٥٦٦١٧٠ - ٥٥٧٣٢١٠



صفات

عباد الرحمن في القرآن

دراسة في طريقة التفسير الموضوعي

تدبّر
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

مكتبة الطالب الجامعي
مكة المكرمة - العزيزية

بسم الله الرحمن الرحيم

بادي بدء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (١) قَيِّماً يُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢)﴾ الكهف ١٨.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)﴾ الفرقان ٢٥.

والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد العالمين وخاتم المرسلين، وإمام المتقين والأبرار والمحسنين، وصفوة عباد الرحمن من خلقه.

وبعد: فإنَّ أفضل العلم وأشرفه ما يتعلّق بتدبّر كتابِ الله عزّ وجلّ، واستخرج دلالات آياته، واستنباط ما اشتمل عليه من علوم.

وفي هذا الكُتَيِّب دراسةٌ للمدركات الظاهرة التي اشتملت عليها آيات من سورة (الفرقان ٢٥) في بيان صفات عباد الرحمن، مع آيات أخرى موزعة في القرآن الكريم فيها دلالات واضحات أو إشارات لعباد الرحمن أو صفاتهم، قصدت منها أن تكون دراسة موضوعية لعباد الرحمن وصفاتهم من خلال تفسير الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع.

ولم ألجأ إلى التوسع في جوانب اللغويات والنحويات والبلاغيات،

وجوانب الإعجاز القرآني فيها، لأنّ الهدف توجيه القارىء المؤمن المسلم للتحلّي بصفات عباد الرحمن، ومعلوم أن العمل بالقرآن الكريم هو الغرض الأساسي من تدبر آياته وسوره.

أسأل الله أن يحققنيَ أولاً بالتحلّي بصفات عباد الرحمن، وأن تكون سبباً في انتفاع من له إرادة صادقة في أن يكون من فئة عباد الرحمن، إنه كريم منّان.

الكويت في ٢٩ رمضان ١٤٠٥ هجرية

فندق الشيراتون

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمات

[١]

كلّ الخلق عباد الله، مملوكون له، لأنه هو وحده الذي خلقهم، وهو وحده الذي يرزقهم، ويحييهم، ويميتهم، ويحاسبهم على أعمالهم الإراديّة، ويجازيهم ضمن قانون:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

ولكن تختلف حظوظ الناس بعد خضوعهم القهريّ لسلطان ربوبيّة الله لهم وعبوديّتهم له من أسماء الله الحسنى.

فحظّ بعض عباد الله الأوفر من أسماء الله الحسنى هو من أسماء المنتقم الجبار القهار، لأنهم لم يعترفوا له بالرُّبوبية، أو بالوحدانية، أو اتخذوا له شريكاً في ربوبيته أو في ألوهيته، رغم خضوعهم بالقهر لسلطان ربوبيته، وحاجتهم بالضرورة لما يمدُّهم به من الحياة والرزق والصحة وكلّ أسباب مطالب أجسادهم ونفوسهم.

وحظّ بعض عباد الله الأوفر من أسماء الله الحسنى ينالهم من أسماء العفوّ، الغفور، الغفّار، التوّاب، لأنّهم كثيرو الذنوب والمعاصي، وهم يتبعونها بالاستغفار والتوبة والندم وطلب العفو، فهم مؤمنون، ولكنّهم من الذين أسرفوا على أنفسهم.

وفريق من عباد الله حظهم الأوفر منّ أسماء الله الحسنى هو من اسم «الرحمن»، لأنّهم علّقوا إراداتهم بأسباب الطاعات والعبادات، والسعي للعمل بمراضي الله، التي يستدرّون بها فيوض رحمات الله، مع التعلق باسمي الله الرحمن الرحيم، فاستحقوا أن يظفروا بجائزةٍ ربّانيّةٍ خاصّةٍ بهم، عنوانها: «عبادُ الرحمن».

فهم يحملون بهذا الوصف ليوم الدين وثيقةً ينالون بها الثواب العظيم الخاصّ بعباد الرحمن.

وقد جاء في القرآن الكريم وصفٌ مفصّل لعباد الرحمن، فهم فرقة ذات تفوّق من فئات المؤمنين يتحلّون بطائفة من الصفات الإيمانية والعملية، يظفرون بسببها برحمة خاصة من رحمات الله العظيمة الجليلة، ويستحقون بها شرف النسبة إلى اسم الله الرحمن، ويأخذون بها شهادةً عنوانها عِنْد الله «عباد الرحمن».

وقد ذكرت الآيات من أواخر سورة «الفرقان» جملة من صفاتهم، وأبانت خصائصهم، وجاء في عدّة سور أخرى من القرآن بيان لطائفةٍ من صفاتهم.

وفي هذا البحث استعراضٌ وشرح لصفات «عباد الرحمن» وخصائصهم، وما امتازوا به، وما أعدّ الله لهم عنده من ثواب عظيم.

وباب «عباد الرحمن» مفتوح لكلّ من أراد صادقاً أن يكون واحداً منهم، وعمل بتوفيق الله لتحقيق ما أراد.

ومن كان عبداً حقًّا من «عباد الرحمن» متحلِّياً بصفات عباد الرحمن المذكورة في القرآن حاز شرف العبودية للرحمن، والنسبة إليه، وكان من الظافرين برحمةٍ من الله وفضل، ومن الذين قال الله بشأنهم في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَامًا (٧٦)﴾.

اللَّهم وفّقنا للتحلّي بالصِّفَاتِ التي تجعلنا منهم.

* * * * *

[٢]

اسم الله الرحمن:

الرحمٰن: اسم من أسماء الله الحسنىٰ مشتقٌ من الرحمة، والرحمة أجلّ صفة تتدفّق بفيض العطاء، دون حساب، فمن كان من عباد الرحمن حقًّا تدفّق عليه من ربّه فيض عطاء لا يستطيع العادّون حصره، ولا يستطيع الواصفون وصفه، ولا بيان حقيقته أو مقداره.

لقد وسِعَ ربُّنا كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً، فبرحمته يهدي عباده إلى سبُل سعادتهم، وبرحمته يُنَزِّل عليهم الشريعة الكفيلة بتحقيق الخير والسعادة لهم في دنياهم وأخراهم، وبرحمته يدخل المؤمنين في جنّته، ويغفر للمسيئين، ويستجيب للمضطرين.

ولقد كتب الله على نفسه الرحمة، ووصف نفسه بأنّه أرحم الراحمين، وبأنّه خير الراحمين، وأبان الرسول ﷺ مبلغ عظمة رحمة الله بالنسبَة إلى كلّ الرحمة الموجودة لدى جميع خلق الله لو جُمعت، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ لله مئة رحمة، أنزَل منها رحمةً واحدة بين الجنّ والإنس والبهائم والهوامّ، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطفُ الوحش على ولدها. وأخّر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة».

وفي رواية:

«جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدّابة حافِرَها عن ولدها خشية أن تصيبه».

فمن تحقَّق بعبوديته في ظل اسم الله (الرحمن) وتحلَّى بصفات عباد الرحمن صادقاً مخلصاً، كان من «عباد الرحمن» وتدفَّق عليه من رحمة الله فيضٌ عظيم، وكان سعيداً في الدنيا، سعيداً في الآخرة، وتوالى عليه من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ولعباد الرحمن صفات متغلغلة في عمق النفس، وصفات ناتجة عنها في السلوك، وفي الفصلين التاليين بيان وشرح لكلٍّ منهما.

* * * * *

الفَصْل الأوَّل

صفات عباد الرحمن المتغلغلة في عمق النفس



لقد جاء بيان صفات «عباد الرحمن» المتغلغلة في عمق النفس خلال نصوص قرآنية موزّعة في عدد من سُور القرآن الكريم.

١ ـ ففي سورة «الملك ٦٧» جاءت الإشارة إلى صفتين منها بقول الله عزّ وجلّ:

﴿قل: هو الرَّحمٰنُ آمنَّا به، وعليه تَوكَّلنا... (٢٩)﴾.

الصفة الأولى: الإيمان، ومن المعلوم في الدين وقواعده الأولى، أنَّ الإيمان شرط أساسيٌّ للنجاة، ولا يمكن الارتقاء في مرتبة من المراتب الصاعدة التي ترفع الإنسان إلى مرتبة المحسنين دون التحقُّق بشرط صحة الإيمان.

فصحةُ الإيمان وسلامته هي القاعدة الأولى، وهي الأساس لكلّ أبنية الكمال الإنساني الذي يقرّب العبد إلى ربّه، ويحقّق له السعادة العظمى.

وبيان حقيقة الإيمان وبيانُ أركانه موزَّعٌ في كتاب الله وسنة رسوله، ونصوصُ ذلك يمكن أن تشرح في مجلّدات.

وبنظرة عامّة فاحصة نلاحظ أنَّ الإيمان هو القاعدة الأولى، أو الأساس الأعظم في بناء الدين، وهو الأساس الأعظم أيضاً في بناء الحيّ المدرك

السويّ، فلا يستقيم أمر إنسان، ولا يكون ذا سلوكٍ عاقلٍ متّزنٍ، ما لم تكن لديه قاعدة إيمانية توجّه سلوكه، وتحدّد في الحياة غايته.

والإيمانُ في الإسلام هو الاعتراف الإراديّ بالحقّ النابع من عمق الفؤاد، وأعظم الحقائق التي كلّف الله الإيمان بها تأسيساً لقاعدة الدين الأولى هي حقيقة وجود الله الخالق، ووحدته في ربوبيته وألوهيته، وصفاته وأسمائه الحسنى، ومن ذلك حكمته في الخلق، وأنّه خلق ذوي الإرادات الحرة ليبلوهم أيُّهم أحسن عملاً، وأنّه أعدَّ حياة أخرى لإدانتهم بعد هذه الحياة الدنيا. وأنّه أرسل رسلاً وختمهم بمحمّد ﷺ، لِيُبَلِّغُوا الناس شريعة الله لهم، إلى سائر أركان الإيمان وتفصيلاتها، وما يتعلّق بها.

ولذلك كان الإيمان هو القضية الأولى من قضايا الإسلام.

ولَمَّا كان الإيمان هو الأساس في بناء الدين، وجدنا أنَّ أوَّل ما بدأت به دعواتُ الرسل عليهم الصلاة والسلام، تأسيس الإيمان في قلوب من يدعونهم إلى دين الله، ووجدنا محمَّداً رسول اللهُ وخاتم النبيين، قد بدأ أوَّل ما بدأ بالدعوة إلى تصحيح الإيمان، والاهتمام بتأسيسه، وبذلِ غايَة الجَهد للإقناع بعناصره وترسيخ قاعدته، ووجدنا القرآن الكريم يوجّه أعظم اهتمامه لقضايا الإيمان، ووجدنا أنَّ ما نزل منه في مدّة الدّعوة المكيّة ـ وهي المدة الأولى في الدعوة المحمديّة الإسلامية ـ يُعالجْ بالدرجة الأولى تأسيس قضايا الإيمان بمختلف الوسائل الإقناعية، ويوجّه اهتمامه الأكبر لتصحيح عقائد الناس بالنسبة إليها.

إنَّ المفاهيم الاعتقادية الإيمانيّة ضروريّة لتوجيه كلِّ أنواع السلوك الإنساني، فمن ليس لديه مفهومٌ صحيح ثابت عن أمرٍ ما مِنْ أمور حياته لا يستطيع أن يتّخذ تجاهه قراراً يطمئنّ إليه، ولا يستطيع أن يوجّه نحوَهُ عاطفة صادقة، ولا يستطيع أن يرسم لنفسه بالنسبة إليه سلوكاً لا ترددَ فيه ولا اضطراب.

إننا حين نلاحظ أنواع سلوكنا العاديّ في الحياة نَجدُ أنَّ إرادتنا تتصرَّف بتوجيهٍ من مفاهيمنا الثابتة في نفوسنا، وهذه المفاهيم الثابتة تمثّل فينا مجموعة عقائدنا في الحياة.

من هذا نُدرك أهميّة مفاهيمنا الثابتة ـ وهي مجموعة عقائدنا ـ في توجيه إرادتنا لأنواع من السلوك نتصوّر أنّها تجلب لنا مصلحة أو نفعاً أو لذّة، وهذه أمور نحبّها، أو نتصوّر إنَّها تدفع عنا مفسدةً أو مضرَّةً، أو ألماً، وهذه أمور نكرهها، والمفاهيم متى غدت ثابتة راسخة في نفوسنا، واطّمأنّتْ قلوبنا إليها، وأصبحت عواطفنا تتأثر بها كانت عقائد راسخة لدينا، وهذا المستوى من رسوخ المفاهيم مع طمأنينة القلب إليها، وتأثُّرِ العواطف بها، هو ما يطلَقُ عليه لفظ (الإيمان) ومشتقّاتِ هذا اللفظ.

والإيمانُ في اللغة هو التصديق، والتصديقُ القلبي الإرادي الذي يعترف به ذو الإرادة اعترافاً داخلياً تقترنُ به الطمأنينة، ومن التصديق القلبي والطمأنينة تتولّد العاطفة، وفي الإيمان مع دلالته على التصديق الإرادي معنى الأمن، والأمن متى لامس القلوب اطمأنّت وسكنت، ولم يكن فيها خوفٌ ولا قلقٌ ولا اضطرابٌ تجاه الجهة التي شعرت نحوها بالأمن.

فالإيمانُ هو طمأنينةُ القلب لمفهومٍ صدّق به تصديقاً إراديّاً وأمِنَ من احتمال الخطأ فيه، وغدا قادراً على تحريك العاطفة بموجبه وتوجيه السلوك على مقتضاه.

وهذا الإيمان هو الركنُ الأساسيّ الذي بدأ به الإسلام في تكوين شخصية المسلم، لأنَّه الجذر الأوّل في بناء شخصيته، وهو العنصرُ الأساسيّ المحرّكُ لعواطفه والموجّه لسلوكه، ومتى صحّتْ عناصر الإيمان في إنسانٍ ما استقامت الأساسيَّاتُ الكبرى لديه، فسلَك طريق الحقّ والخير والرّشاد، واستطاعَ التحكُّم بأنواعِ سلوكه، واستطاع ضبطها فيما يدفع عنه الضرّ والألم

والمفسدة، العاجلَ من ذلك والآجل، وفيما يجلُبُ له النفع واللّذة والمصلحة، العاجل من ذلك والآجل، وهذا ما يطلبُه منّا الإسلام.

وقد أدرك الباحثون من غير المسلمين حديثاً قيمة العقائد الإيمانية، في توجيه سلوك الإنسان، فبدأوا يتحدّثون عنها تحت عنوان: «أيديولوجيات» ولكنّهم ما استطاعوا أن يصلوا إلى المستوى الذي وصل إليه الإسلام، إذْ هو يبني في الفرد المسلم إيماناً لا يضارعه ولا يشابهه أيُّ عنصر اعتقادي يحاولون غرسه في نفس الفرد من أفرادهم، أو التابع من أتباعهم.

إنَّ الدعوة إلى الإيمان وجعلها هي القضية الأولى من قضايا الدين هو ما تقتضيه طبيعة بناء الدين، وهي طبيعة كلّ دعوة تستدعي سلوكاً إراديّاً واعياً.

إنَّها فكرة مدعّمة بالدليل الحق، فعقيدة، فعاطفة، فإرادة، فسلوك.

أمَّا السلوك من غير إرادة فهو إكراه، ولا إكراه في الدين، وأمَّا الإرادة من غير عاطفةٍ ملائمةٍ فهي إرادة باردة لا حرارة فيها ولا قوّة، وأمَّا العاطفة من غير عقيدة فهي عاطفة انفعالية هوائية، سريعة التغيّر، سهلة التقلّب، وأمَّا العقيدة من غير فكرة مدعّمة بالدليل الحقّ فهي عقيدة خرافية، لا قيمة لها، ولا وزن لها.

من أجل كلّ ذلك كان الإيمان في البناء الإسلامي الصحيح، إنَّما يتمّ بعد أن تبلُغَ الفكرة مستوى الجزم، بالدليل الذي يرتضيه الفكر السليم، والمنطق الصحيح.

وعباد الرحمن يبلؤون مسيرتهم بالإيمان بالحق الذي جاء من عند الله الرحمن، على لسان النبيّ الذي أرسله الله رحمةً للعالمين.

* * * * *

الصفة الثانية: صدقُ التوكُّل على الرحمن، وصدق التوكّل لا يتحقق إلاَّ إذا كانت نسبة الإيمان بالله نسبةً عظيمةً مهيمنةً على التصوّر، مُسَكِّنَةً قَلَقَ النفس تُجاهَ مطالبها.

وصدق التوكُّل على الله وظيفة قلبية ونفسية، وهي في داخل القلب والنفس من ثمرات الإيمان الصحيح الصادق. أمَّا الأعمال، والإعداد لها، والتخطيط لها، فنظامُها سببي، والواجب الديني بالنسبة إليها هو الأخذ بكامل الأسباب، دون التفريط بأيّ عنصر من عناصرها، أو جزءٍ من أجزائها، أو شرطٍ من شروطها.

فالتفريط بالأسباب فيه عصيان لأمر الله بوجوب اتخاذها، ويفضي إلى الحرمان من المطالب التي جعل الله في سننه التكوينية تحقيقها بها، سواء أكانت مطالب دنيوية أو أخروية.

واعتماد القلب والنفس على الأسباب، والثقة بأنها هي المؤثرة، ممَّا يُخلّ بصحة الإيمان وسلامته، وهو في حقيقته شِركٌ بالله، وهو من قبيل جعل الأسباب شريكةً لله في ربوبيته، مع أنَّ الله عزّ وجلّ هُو خالقُ الأسبَاب، وهو المسخّر لها، وهو الذي قضى وقدَّر أن تكون أسباباً، لا يستطيع المخلوق المريد إلاَّ أن يتقيّد بها في أعماله وحركاته الإرادية، مع أنَّ آثارها لا تتحقّق إلاَّ بخلْق الله وإرادته، إذْناً وتمكيناً بعد التسخير، أو خلقاً مباشراً من خلال المظاهر السببيّة.

ولمعرفة أنَّ التوكُّل على الله ثمرة من ثمرات الإيمان الصحيح الصادق، وأنَّه وظيفة من وظائف القلب والنفس لدى ممارسة الأعمال طاعةً لله عزّ وجل، لا بدَّ أن نحضر في تصوّرنا إنَّ الله عزّ وجلّ عليمٌ حكيمٌ قديرٌ خلاق، بيده مقاليد السماوات والأرض، وهو المهيمن على كلّ شيء، وله الخلق والأمر، وهو الرزّاق ذو القوَّة المتين، وهو الذي بيده الحياة والموت، والنفع

والضّر، والفتح والنصر، وكلّ ما يجري في الكون إنما يجري بأمره أو بإذنه وتمكينه، إنه سبحانه وتعالى إذا شاء وهب، وإذا شاء حجب، وإذا شاء أذن للأسباب فأثرت آثارها، أو ألفاها أو قطّعها أو سلب تأثيراتها فلم تغن شيئاً، وهو الذي إذا شاء صرف الموانع أو أقامها، حكمُهُ النافذ فلا معقب لحكمه، وقضاؤه هو المنجز فلا معدّل لقضائه.

كلّ هذا من عناصر القاعدة الإيمانية، وهذه العناصر متى كانت حاضرة في تصوّر المؤمن جعلته يعلّق قلبه ونفسه بالله، فيطلب كلَّ مطالبه في حياته منه، وهو يباشر أعماله ويتخذ الأسباب لتحقيقها، ويتوكّل بقلبه عليه سبحانه، ويدعوه أن يحقق له الخير. لأنه يؤمن إيماناً جازماً راسخاً، بأنَّ الله عزّ وجلّ إذا قضى أمراً أو أذن به يسّر أسبابه، ودفع عنه الموانع، وحقّق النتائج المرجوة، وإذا لم يكن له في الأمر قضاء أو إذن، لم ييسّرْ أسبابه، ولم يدفع الموانع، ولم يحقق النتائج التي يرجوها العاملون من عباده.

فالتوكُّل على الله سلوكٌ نفسيّ وقلبي يقتضيه الإيمان الصحيح السليم الماثل في ساحة التصوّر الموجّه للسلوك.

والتوكّل على الله وظيفة من وظائف القلب والنفس لدىٰ المؤمن، ومن شأنه أن يشحن قوى العمل بالثبات والصبر والثقة، ويدفع إلى طاعة الله باتخاذ الأسباب التي أمر باتخاذها، والقيام بالعمل الذي ربط الله به مطالب العباد في حياتهم، وأمرهم به، سواء أكانت هذه المطالب من مطالب الآخرة، أو من مطالب الدنيا.

وليس التوكُّل على الله وظيفة من وظائف العمل الجسديّ أو التدبيري أو التخطيطي، حتّى يكون مثبطاً عن العمل، أو داعياً إلى التهاون بمعاشرة الأسباب، والإخلاد إلى الراحة، وترك الأمر تركاً كلياً اعتماداً على المقادير، فمن المقادير الربّانية ما هو منوط بأعمال العباد، فإذا عملوا ما يجب أن

يعملوه لما يرجونه تحققت لهم بالمقادير ثمرات أعمالهم، وإذا تركوا العمل الواجب ـ وإنْ زعموا أنهم قد توكَّلوا على الله ـ تحققت لهم بالمقادير الربّانية نتائج كسلهم وتهاونهم.

فلا يلومَنَّ تارك العمل إلاَّ نفسه، ولا يتَّهِمَنَّ المقادير بأنَّها لم تعطه ما يتمنَّى، بعد أن لم يقدّم لتحقيق أمانيه ما جعلته المقادير الربّانية سبباً لها في سنن الله التكوينيَّة.

وفي بيان ارتباط التوكّل على الله بالإيمان، وبيان أنه ثمرة من ثمراته في السلوك النفسيّ والقلبي، قال الله عز وجل في سورة (الأنفال ٨):

﴿إنَّما المؤمنونَ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى رَبّهم يتوكَّلون (٢)﴾.

أي: فما المؤمنون حقّاً إلاَّ الذين إذَا ذُكر الله وجِلت قلوبهم، أي خافت من عقابه، لأنهم مؤمنون بعدله وبكمال قدرته، ومؤمنون بعظمته وجلاله، وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُه زادتهم إيماناً، لأنها تزيدهم علماً ومعرفة بحكمته وعلمه، وإعجاز قرآنه المنزّل، فيزيدهم ذلك إيماناً بصدق وصحة ما جاء من عنده على لسان رسوله، وإيماناً بصدق رسوله فيما يبلّغ عن ربّه، وبأنه الأمين الذي لا ينطق عن الهوى، وصفتهم الدائمة المتجدّدة مع كلّ عمل يعملونه، أنَّهم على ربّهم وحده يتوكَّلون في كلّ أمورهم، ولا يتوكّلون على غيره مطلقاً.

ولمَّا كان التوكُّلُ على الله من لوازم الإيمان الصحيح الصادق وتعبيرا داخليّاً في حركة القلب والنفس عن صحة اليقين بأنه لا إلَه إلاَّ الله، أمر الله المؤمنين بأن يتوكَّلوا عليه وحده، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (التغابن ٦٤):

﴿الله لا إلَه إلاَّ هو، وعلى الله فليتوكّلِ المؤمنون (١٣)﴾.

وقال عزّ وجلّ في سورة (المجادلة ٥٨):
﴿وعلى الله فليتوكّل المؤمنون (١٠)﴾.

وقد أدرك الرجلان المؤمنان من بني إسرائيل أنَّ التوكُّل على الله من لوازم الإيمان الصحيح الصادق، على معنى أنَّ من صحَّ إيمانه صحّ توكّله على الله وحده، وأقبل على معارك القتال الذي أمر الله به وهو واثق من إنَّه لن يصيبه إلاَّ ما كتب الله له، وعلى يقين بأن الله ينصُرُ أولياءه على أعدائه، إذا اتخذوا كلّ الأسباب التي أمر الله باتخاذها، وحققوا في أنفسهم ما أوجب الله عليهم من شروط.

وإذْ أدرك هذان الرجلان المؤمنان من بني إسرائيل هذه الحقيقة حثَّا قومهما وهم بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام على أن يدخلوا الأرض المقدّسة كما أمرهم موسى، وأبانا لهم أنَّهم إنْ يدخلوها متوكلين على الله ينصرْهم الله على عدُوّهم.

وفي بيان قصة الحوار الذي جرى بين موسى عليه السلام وبني إسرائيل من جهة، وبين الرجلين المؤمنين منهم وسائرهم من جهة ثانية، قال الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة ٥):

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ: يَا قَوْم ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ ٱلْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ. ولا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُم فَتنقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا: يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارين وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها، فَإِنْ يَخْرُجوا مِنْها فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَال رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنعَمَ ٱللَّهُ عليهما: ٱدْخُلُوا عليهم الباب فَإذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمُ غالِبُونَ، وعلى اللَّهِ فَتوكَّلُوا إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنِينَ (٢٣)﴾.

ولمَّا كان التوكُّل على الله من لوازم الإيمان الصحيح الصادق، كان

حقيقة من حقائق الدين الثابتة في كلّ الرسالات الربَّانية، وكان مُعلناً على ألسنة الرسُل جميعاً.

قال الله عزّ وجلّ في سياق الحديث عن قوم نوح وعادٍ وثمود والذين من بعدهم، وما قالت رسلهم لهم، في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ: إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ، وَعَلَىٰ ٱللَّهِ فَلْيَتَوكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتوكَّلَ عَلَىٰ ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾.

بهذا البيان وضح لنا أنَّ من صفات عباد الرحمن المتغلغلة في عمق النفس صفتا الإيمان، وصدق التوكّل على الرحمٰن.

وهاتان الصفتان قد جاءت الإشارة إليهما في قول الله عزّ وجلّ لرسوله في أواخر سورة (الملك ٦٧):

﴿قل: هو الرَّحْمَـٰنُ آمَنَّا بِهِ، وعليه تَوَكَّلْنَا. . . (٢٩)﴾.

وفي هذه الآية نلاحظ أنَّ الله عزّ وجلّ يُعَلِّم رسوله أن يقول هذه المقالة الإيمانية عن نفسه، وعن كلّ الذين آمنوا معه واتبعوه صادقين محسنين.

* * * * *

الصفة الثالثة: خشية الرحمن بالغيب، وهذه الصفة ثمرة من ثمرات الإيمان في حركة النفس ومشاعر القلب.

ففي سورة (ق ٥٠) وسورة (يس ٣٦) جاءت الإشارة إليها، فهي من صفات عباد الرحمن المتغلغلة في عمق النفس فمن صحّ إيمانه بالله الرحمن، وكان إيمانه هذا مهيمناً على تصوّره مع حركاتِ خواطره، خشي الرحمن بالغيب، أي خشيه مع إنَّه غيب عن حواسّه، لكنّ حضوره الذهني

والتصوريّ والنفسيّ بمشاعرها مع الرحمن أي: مع صفاته وأسمائه الحسنى، ومنها عدله ورحمته، لا بدَّ أن يجعله في حالة خشية مع الله، لأنه قد بلغ مبلغاً قريباً من الشهود لشدّة يقينه بما آمن به، فهو يعبد الله كأنه يراه، فيسعى في طاعته طلباً لرضوانه، ويجتنب معصيته حذراً من عقابه.

والخشية في مستواها الأعلى شعورٌ نفسيٌّ بالإجلال، فيه مزيج من الطمع بفيض العطاء، والخوف من الجزاء بالعدل على التفريط في جنب الله في ساحة الابتلاء.

ومن لوازم هذه الخشية الإنابة إلى الله، والرّجوع إليه كلَّما بدرت من صاحب الخشية معصية يخاف عقابها، فهو يُنيب إلى ظلّ اسم الله «الرحمن» ليغفر له، ويكفّر عنه خطيئته، ومن ثمراتها في السلوك الدائم أن يكون صاحبها حفيظاً، شديد المحافظة على فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، شديد المحافظة على عهده مع الله الذي عاهده يوم أسلم.

قال الله عزّ وجلّ في سَورة (ق ٥٠):

﴿وَأُزْلِفَتِ الجنَّةُ للمتّقين غير بعيد (٣١) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوّابٍ حفيظ (٣٢) مَنْ خشِيَ الرَّحْمٰنَ بالغيب وجاء بقلب منيب (٣٣)﴾.

أزْلفتْ: قُرِّبَت.

الأوّاب: هو الرَّجَّاعُ إلى الله بالتوبة والندم.

بقلب منيب: أي بقلبٍ رجّاعٍ إلى ربّه كُلَّما صرفته عن ساحة القرب منه عوارض الغفلات، وغشاوات الزَّلاتِ والتقصيرِ في الطاعات والعبادات.

في يوم القيامة قبل أن يُؤْمَر بإدخَالِ أهل الجنَّة في الجنّة، وإدْخال أهل النار في النار، يَسرُّ الله عزَّ وجلّ المتقين، فيقرّب لهم الجنَّة تقريباً غير بعيد عنهم ليتمكنوا من رؤيتها، ومُشاهدة ما أعدَّ الله فيها من نعيم لهم، وفي هذا

التقريب بشارة لهم، ومسرَّة، وتشويق لدخولها، وطمأنينة قلب بأنَّهم من أهلها.

وجاء وصف الإزلاف (أي: التقريب) بأنَّه غير بعيد عنهم لأنَّ مجرد التقريب لما هو بعيد لا يفيد إنه قد صار بحيث يشاهد ما فيه مشاهدة دقيقة.

لكنَّه إذا وُصفَ بأنه غير بعيد عنهم كان ذلك نصّاً على أنّ ما يُقَرَّبُ قد صار بحيث يشاهد من قِبَل مَنْ قُرِّبَ له.

وعلى هذا يكون تأويل الآية: وأُزلفت الجنَّةُ للمتقين إزلافاً غير بعيد عنهم، أي غير بعيد مكانه، ليشاهدوا ما فيها من تفاصيل نعيم مُعَدٍّ لهم.

وبعد هذا الإزلاف يُقالُ لكلِّ أَوَّابٍ حفيظٍ من المتقين «هذا ما تُوعدونَ» وجاء التعبير في البيان بصيغة الفعل المضارع لأنهم لم يدخلوا الجنة بعدُ، فهم ما زالوا في موقف العرض والحساب، لإصدار أحكام الجزاء، فهم في حالة الموعود، الذي قُرِّب له الموعود به، وأُطلع عليه، ولكنَّه لم يملكه بعد.

ويظهر أنَّ المشار إليه بكلمة «هذا» قسم خاصّ من الجنة، مُعَدٌّ لكلِّ أوَّاب حفيظ، من فئةِ المتقين، فهمُ الذين يُخاطبون من المتقين بهذا الخطاب التكريمي.

فقال تعالى: **﴿هذا ما تُوعدونَ لكلِّ أوَّاب حفيظ﴾** أي: هذا ما تُوعَدون به جميعاً وعداً مشروطاً بأنَّ مستحقه لا بدّ أن يكون أوَّاباً حفيظاً، فالسعيد به هو كلُّ أوَّابٍ حفيظ.

والأَوَّاب من المتقين هو كثير الرجوع إلى ربِّه لدى كلّ بادرة معصيةٍ تكون منه وكذلك سريع الرجوع إلى ربِّه بالتوبة والندم والاستغفار، فصيغة المبالغة في كلمة «أوَّاب» يمكن حملها على معنى سرعة الرجوع إلى الله

بالتوبة، ولا يشترط فيها كثرة الرجوع ليلزم من ذلك كثرة الذنوب. ونفهم من هذا أنَّ الانحراف اليسير عن الصراط المستقيم، مع الرجوع السريع إليه في السلوك الإنساني لا يؤثر على صفة الاستقامة والمحافظة على عهد الطاعة، وهذا فضلٌ من الله أكرم به عباده المتقين.

أمَّا الحفيظ، فهو كثير المراقبة لأعماله وأوامر الله ونواهيه المتعلّقة بها، وكثير الحماية لنفسه من مزالق المعاصي والآثام والمخالفات، وكثير العناية بتغذية قلبه ونفسه وفكره وروحه بما ينمّي فيها الارتقاء في معارج القرب من الله، والسعادة بعبادته ومناجاته وتدبّر آياته. وكلّ هذه المعاني تدخل في عموم دلالة كلمة الحفظ.

فالحفيظ على ما له، يراقبه خوف العوارض والمكاره فيه، ويحميه، ويعتني به بالتنمية حتى لا تفنيه آكلات الزمان.

والأوَّاب الحفيظ هو من خشي الرحمن بالغيب، فخشيته نابعة من شهوده في عمق فؤاده اسم الله الرحمن. وقد استمرّ حاله على ذلك حتى أدركه الموت، فجاء إلى ربِّه بقلبٍ مُنِيبٍ، أي: بقلب راجع إلى ربِّه تائبٍ مستغفرٍ عاملٍ بما أمره الله به، مجتنبٍ لما نهاه الله عنه.

وقال الله عزّ وجَلّ في سورة (يس ٣٦) مخاطباً رسوله محمّداً ﷺ:

﴿إِنَّمَا تُنْذِر مَنْ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمٰنَ بالغيبِ، فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيم (١١)﴾.

أي: إنَّما ينفع إنذارُك حينما تُنذر من أصغى للذّكر وهو القرآن، واتَّبع دلالاته ليتدبّرها وينتفع بها، وخشي الرّحمٰن بالغيب، والخشيةُ بالغيب هي ثمرة الإيمان الصحيح الصادق، الماثلِ في تصوّرات المؤمن الحاضرةِ المتحركة الفاعلة.

ومن كان كذلك حَقَّتْ له البشارة بمغفرةٍ من اللّهِ وأجْرٍ كريم.

والأجر الكريم هو الأجر العظيم الجزيل المقرون بالتكريم.

وقد أبان الله عزّ وجَلّ ارتباط الخشية بصحة الإيمان وصدقه، في عدّة نصوصٍ قرآنية، فمنها ما يلي:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة ٩) خطاباً للمؤمنين:

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُم مُؤمِنِينَ (١٣)﴾.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران ٣) في وصف المحسنين من المؤمنين:

﴿الَّذِينَ آسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَآتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) آلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ آلنَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا. وَقَالُوا: حَسْبُنَا آللَّهُ وَنِعْمَ آلْوَكِيلُ (١٧٣) فَآنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ آللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ آللَّهِ، واللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ آلشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين (١٧٥)﴾.

فمن كان مؤمناً حقًّا، خاف الله ولَمْ يَخَفْ من أوْلياءِ آلشَّيطَانِ، ولكِنَّه يتخذ كلَّ أسبَابِ الاحْتِرَازِ منهم، طاعةً لأمر الله، وهذا لا يتنافى مع عدم الخوف منهم، لأنَّ الخوف مشاعر قلبيّة ونفسية يجب أن تكون موصولة ببواعث الإيمان بالله والإيمان بقضائه وقدره، أمَّا اتخاذ الأسباب فأمورٌ عمليّة يُنفِّذُ فيها المؤمن أوامر الله ونواهيه، ومن أوامر الله اتخاذ الأسباب للاحتراز من الأعداء، واتخاذ المستطاع من القوة لإرهابهم، وإرهاب آخرين من دونهم.

فعباد الرحمن يخشون الرحمٰنَ بالغيب، ومن خشي الرحمٰنَ بالغيب

كان أوّاباً إليه، حفيظاً على عهده معه، حفيظاً على طاعته له، فإذا أدركته منيته وافى ربَّه الرحمٰنَ بقلبٍ منيبٍ، راجع إليه بالتوبة والطاعة والدعاء والرجاء.

ولا بدَّ أن نعلم أنَّ عباد الرحمن فئة ممتازة من فئات المتّقين، فهم يتحلّون بكلّ الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها المتقون، أو بمعظمها مع التوبة القريبة عن الخطايا والمخالفات، ثم يزيدون عليهم بصفات أخرى هي من صفات الأبرار، أو من صفات المحسنين، فكلّ خطاب للمؤمنين في القرآن بتكليف إلزاميّ تعتبر مخالفته منافية للتقوى، وعباد الرحمٰن لا يخالفونه بإصرار، وإن بدرت منهم بادرة معصية تابوا واستغفروا من قريب، ولم يصرّوا على ما فعلوا.

ولذلك نلاحظ أنَّ بعض ما ذكر في صفاتهم الخاصة هو من صفات المتقين، نظراً إلى أنَّ المرتبة الدنيا شرط طبيعيّ لتحَقُّق المرتبة العليا، أو السير في طريقها.



الفَصْلُ الثَّانِي

صفات عباد الرحمن في السلوك الظاهر

ذكرت أواخر سورة (الفرقان ٢٥) صفات «عباد الرحمن» التي تطفو على سطح سلوكهم الظاهر، وهي اثْنَتَا عشرة صفة، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

- ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾.
- ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا: سَلَامًا (٦٣)﴾.
- ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤)﴾.
- ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَامًا (٦٦)﴾.
- ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾.
- ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ﴾.
- ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.
- ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا (٧١)﴾.

﴿أُوْلَٰئِكَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾.

- ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)﴾.

- ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣)﴾.
- ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)﴾
- ﴿أُوْلَـٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)﴾.

وأحاول في هذا الفصل شرح صفاتِ عباد الرحمن التي اشتمل عليها هذا النصّ، مع الاستفادة من سُوَرٍ أخرى تَعرَّضَتْ لموضوعاتها.

* * * * *

[١]
الصفة الأولى

إِنَّهُمْ يَمْشُونَ عَلَىٰ ٱلْأَرْضِ هَوْنًا .

أي: يمشون على الأرض بخِفَّةٍ ورِفقٍ وسكينةٍ ووقار.

وينافي هذه المشية الخفيفةَ الرفيقةَ مِشْيةُ الذين يمشون على الأرض بعنفٍ، ومَرَحٍ، وبَطَرٍ، وتبختُرٍ، وتَعاظُم، وضربٍ على الأرض وتطاوُلٍ في السماء.

وينافي هذه المشية أيضاً مِشْيَةُ الذين يسعون في الأرض فسَاداً، أو طلباً للعلوّ فيها، والاستئثار بحظوظها الفانية.

وينافي هذه المشْيَةُ أيضاً سعيُ الذين كلُّ همِّهم في الحياة مطالبُ دنياهم، فهم يسعَوْنَ لمجرّد جمع المال، والاستمتاع بلذّات الحياة الدنيا، مع أنّ المطلوب من المؤمن أن يفرّق بين حركته لطلب الدنيا، وحركته لطلب الآخرة.

أمَّا حركته لطلب الدنيا فينبغي أن تكون مشياً برفق في مناكب الأرض، لا سعياً حثيثاً، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الملك ٦٧):

﴿فَٱمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ (١٥)﴾.

وأمَّا حركته لطلب الآخرة فينبغي أن تكونَ سَعْياً بهمّة نفسية فقال الله عزّ وجَلّ في سورة (الجمعة ٦٢):

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩)﴾.

فمن صفات عباد الرحمن إنَّهم يمشون على الأرض هوناً، ولا يمشون مرحاً، لأنّ المرح مظهر من مظاهر كبرِ النفس، وعباد الرحمن متواضعون لله هيِّنون ليِّنون، لا جَبَّارون ولا مُسْتكبرون.

لقد سمعوا نهي الله للإنسان المؤمن عن أن يمشي في الأرض مرحاً، فأطاعوا تحقيقاً لعبوديتهم للرحمن، وعلموا أنَّ الغاية من ذلك أن لا يكونوا مستكبرين متعاظمين على عباد الله، فاجتنبوا كلّ مظهر من المظاهر الدالّة على الكبر والعجب بالنفس.

لقد سمعوا قول الله عزّ وجَلّ في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا (٣٧)﴾.

فأطاعوا، وعَلِمُوا أنَّ الله عزّ وجَلّ ينهىٰ في هذه الآية عن مِشْيَة الخُيَلَاء، وإنَّ الله قد كشف فيها للمستكبر واقع حالِهِ الصغير، فأبان له إنَّه حين يَضربُ الأرضَ برجله، ويتطاول مستعلياً بقامتهِ على الناس، لنْ يستطيع أن يخرق الأرض، أو أن يبلغ الجبالَ طولاً.

وفي هذا إمعانٌ إشاريّ بتحقير المستكبر، فالأرض التي يمشي عليها

أصلب من قوته، والصخور الجامدة المكدّسةُ جبالاً أطولُ من قامته مهما تطاول، فلا يزْعُمَنَّ أنَّ شدّة الوطْءِ، أو تطاوُل الجسم يمنحانه عِظماً حقيقيّاً. إنَّه يقولُ له فيما أشار به إليه: مهلاً بنفسك أيُّها المتكبر المتبختر، إلى أين أنت ذاهب بنفسك متطاولاً بجسمك، إلى جهة الأرض فتضربها بقدميك، وإلى جهة السماء فتنطحها برأسك، هوّن عليك. إنَّك لن تستطيع أن تخرق الأرض مهما تبخترت عليها، إنَّكَ إن تحدّيتَها هشَّمَت جسمكَ وحطّمته، ثُمَّ إنك لن تبلغ الجبال طولاً، مع أنها مهما علت بجسمها عن مستوى الأرض فهي أقلُّ قيمة من الإنسان الذي فضله الله بالصفات التي منحه إياها، وهي من درجات صفات الكمال، فلا تحاول أن تكسبَ المجد بالتبختر والخيلاء على خلق الله.

إنَّ المجد الإنساني لا يكون بطول الأجسام ولا بعرضها، ولا بتبخترها وضربها الأرض بأقدامها حين مشيها، فيا لهذا من تبكيت بديع ورائع للمستكبرين!.

وعبادُ الرحمٰنِ يمشُونَ على الأرض هوناً برفق وسكينة ووقار، فلا يسرعون إسراعاً يدلّ على الخفّةِ والطيش، ولا يبطّئون تبطيئاً يدلّ على الكسل والخمول والتماوت، بل يمشون هوناً بهمّةٍ وعزمٍ ورجولةٍ وفتوّة، ويعملون بوصية لقمان لابنه، إذْ قال له كما أخبرنا الله عزّ وجلّ بقوله في سورة (لقمان ٣١):

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ... (١٩)﴾.

والقصدُ: هو الاعتدال في الأمر من دون إفراط ولا تفريط.

وعباد الرحمن يمشون في مناكب[1] الأرض هوناً لتحصيل أرزاقهم

(١) مناكب: جمع منكب. وهو مجتمع رأس الكتف والعضد، والمنكبُ من الأرض الموضع المرتفع، ومناكب الأرض جبالها، وقيل: طرُقُها، وقيل جوانبها. وربما سميت مناكب تشبيهاً لها في ارتفاعها بمناكب الناس.

ومطالب حياتهم كما أمر الله، ومناكب الأرض هي مواطن الكدح والمشقة، فهم يكدحون ويتحمّلون مشقات اكتساب الرزق ولكنّهم يمشون فيها مشياً، ولا يسعون فيها سعياً، بل يدخرون السعي لأعمالْ الآخرة، فهم يسْعَون إليها.

إنهم يُجْملون طلب أرزاقهم ومطالب حياتهم الدنيا، فيمشون إليها برفق، ضمن حدود ما أذن الله لهم، ودون شَرَهٍ ولا طمع ولا جشع، ولا تضييع لواجب، ولا ارتكابٍ لمحرّم، ولا إمساكٍ لما أمر الله ببذله، ولا تبذيرٍ ولا إسراف.

وعباد الرحمن يمشون على الأرض هوناً، فلا يكون منهم إفسادٌ في الأرض، ولا إفساد بين الناس، إنَّهم لا يمشون بالنميمة، ولا بأيّ عملٍ سَيّءٍ فيه ضُرٌّ أو أذى.

لقد سمعوا قول الله عزّ وجَلّ في سورة (القلم ٦٨):

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مشَّاءٍ بنميم (١١)﴾.

فاجتنبوا أن يكونوا مشائين بالنميمة.

وسمعوا قول الله عزّ وجلّ في سورة (القصص ٢٨):

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾.

فخافوا أن يحرموا هذه العاقبة الحسنى، فهم لا يسعون في الأرض فساداً، ولا يريدون علوّاً في الأرض.

* * * * *

[٢]

الصفة الثانية

إنَّهم إذا خَاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .

أي: إذا خاطبهم الجاهلون بجهالةٍ وسفهٍ مستثيرين غضبهم، قالوا لهم: سلاماً. أي نسلّم سلاماً، ويفارقون بإعلان السلام مجلس الجاهلين، ولا يقولون مقالة العربي الجاهلي:

ألا لا يَجْهَلَنْ أَحدٌ علينا فَنَجْهَلْ فوق جهلِ الجاهلينا

إنَّ هذا التعِليم الجاهلي الذي يحضُّ أفراد القبيلة أو العشيرة على مقابلة الشتائم وقبائح الأقوال بأشدَّ منها، ويُنذِرُ الآخرين بأنَّ أحداً منهم إذا قابلهم بسفاهة ردّوا عليه بأقبح منها، قد جاء الإسلام بإلغائه، وشرع للمسلمين تعليماً آخر ينْبَع من منابع الأخلاق الإيمانية، ألا وهو الحِلْم، وعدمُ مقابلة الجهالة بمثلها، وإعلِان أن المجتمع الإسلامي مجتمع سلام، مجتمعٌ آمِنٌ، لا مكان فيه للجاهلين وأهل الغضب أن يثيروا الفتن الداخليَّة، ويبذروا بذور العدَاوات والخصومات، ولا مكان فيه للسفهاء الذين يتعرّضون لكرامات المسلمين بالإهانة.

فالمسلمون إذا لقي بعضهم بعضاً تلاقوا بالسلام، فَيُكَرِّمُ بعضهم بعضاً بالتحيَّة، ويُعلن بعضهم لبعض شعار المجتمع المسلم، ألا وهو شعار الأمن والسلام بينهم.

والسلامُ يشمل سلامة العرض والجسم والمال وكلّ ما يُهِمُّ الإنسان سلامته.

فإذا رأوا بعد سلام اللّقاء جهالة من جاهل، أو سفاهة من سفيه قطعوا جهالته بالحلم، وبمفارقة مجلسه بعد تذكيره بحقّ المسلم على المسلم وهو

السلام والأمن، الذي يعلنه المسلمون فيما بينهم عند اللقاء، وهو ما تضمّنتهُ عبارة السلام.

وقد بيّن الرسول ﷺ إنَّ من الصفات الأساسيّة للمسلم، أنْ يَسْلَمَ أخوهُ المسلمُ من لسانه ويده.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ قال:

«الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ ٱلْمُسْلِمُون مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَىٰ اللَّهُ عَنْهُ».

فمن لم يتحقَّقْ بذلك لم يكن من أهل هذا الاسم حقًّا، ولم يكن ملتزماً مقتضيات نسبته الشريفة للإسلام.

فمن صفات عباد الرحمن، هذه الظاهرة في السلوك، وهي ظاهرة تدلّ على خلق الحلم المتأصّل فيَ ذات أنفسهم وكيانهم الداخلي، وتدلّ على رجحان العقل لديهم، فلا يستثيرهم جهل الجاهلين، ولا يدفع بهم إلى مواقع الحماقة والرعونة، بل يضبطون ألسنتهم، ولا يقابلون الجهالة القولية بمثلها، ويضبطون أعصابهم، فلا يتصرّفون تصرّفاً غير محمود.

إنَّهم يقطعون على الجاهلية طريق الفتنة والشرّ، ويطفئون الشرارة الأولى التي لو قوبلت بمثلها لكانت ناراً متأجِّجة، قد تجرُّ إلى قتالٍ كبيرٍ، وشرٍّ مستطيرٍ.

إنَّهم بدافعٍ من إيمانهم وحسن إسلامهم، إذا خاطبهم الجاهلون بجهالة تثير الغضب ملكوا أنفسهم ببطولة الحلم، وبطولة الحلم هذه هي البطولة حقًّا، وليست البطولة في مقاييس مكارم الأخلاق قوّة الجسم والقدرة على الغلب في المصارعة، وهذا ما أوضحه الرسول ﷺ ببيانه البديع.

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود، أنَّ النبيّ ﷺ قال:
«مَا تَعُدُّونَ الصُرعَةَ فِيكُمْ؟».
فقالوا: الذي لَا تَصْرَعُهُ الرِّجالُ.

فقال: «ولكِنَّه الذي يمْلِكُ نَفْسَهُ عنْدَ الْغَضَبِ».

إنَّ العرب يطلقون على بطل المصارعة الذي يصارع الناس فيغلبُهم كلمة «صُرَعة» ويُكَبّرون أمره، ويعظمون شأنه، فاستغلّ الرسول ﷺ إعجاب الناس به، وتقديرهم له، ثمَّ حوّلهم عنه إلى البطل الحقيقي، وهو الذي يملك نفسه عند الغضب. وذلك لأنَّ مَلْكَ النفس عند الغضب بطولة إنسانيةٌ فِعْلاً، تعتمد على العقل وقوة الإرادة.

أما بطولة المصارعة فهي امتياز جسديّ يعتمد على قُوَّةِ العضلات والأعصاب والتدريب الجسدي.

ولمَّا كان رسول الله ﷺ قمَّة عبادِ الرحمٰنِ جميعاً، كان أكثر الناس حلْماً، وكان لا يزيده جهل الجاهلين عليه إلَّا حلماً.

فمن روائع حلم الرسول ﷺ أنَّ أعرابياً جاء إليه يطلب منه عطاءً، فأعطاه الرسول، ثم قال له:

«أحسنتُ إليك؟».

قال الأعرابي: لا، ولا أجْمَلْتَ. «استقلّ العطاء» فغضب المسلمون وقاموا إليه، وقد همُّوا أن يؤدّبوه بالعنف. فأشار إليهم الرسول ﷺ أن كُفُّوا، ثم قام ودخل منزله، فأرسل إليه وزاده شيئاً، ثُمَّ قال له:

«أحسنتُ إليكَ؟».
قال: نعم، فجزاك اللّهُ من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً.
فقال له النبي ﷺ:

«إنَّكَ قُلْتَ مَا قُلْتَ آنِفاً، وفي نفسِ أصحابي من ذلك شيْءٍ، فإنْ أحْبَبْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ما قُلْتَ بين يَدَيَّ، حتى يَذْهَب ما في صدورهم عنْكَ».

قال: نعم، فلمَّا كان الغد جاء، فقال النبي ﷺ:

«إنَّ هذا الأعرابي قال ما قال فزِدْنَاهُ، فزَعَم أنَّه رَضِيَ، أكذلك؟».

قال: نعم، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً.

فقال الرسول ﷺ:

«مَثَلِي ومَثَلُ هَذا، كَمَثَلِ رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ شَرَدَتْ عَلَيْهِ، فَأَتْبَعَهَا النَاسُ، فَلَمْ يَزِيدُوها إلَّا نُفُوراً، فَنَادَاهُمْ صَاحِبُها، فقالَ لهُمْ: خَلُّوا بيْنِي وبَيْنَ ناقَتِي، فَإنِّي أَرْفَقُ بِهَا مِنْكُم وَأَعْلَمُ، فَتَوَجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا، فَأَخَذَ مِنْ قُمَامِ الْأَرْضِ، فَرَدَّهَا، حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَنَاخَتْ، وشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا، وَاسْتَوَىٰ عَلَيْهَا، وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ فَقَتَلْتُمُوهُ دَخَلَ النَّارَ».

صلوات الله عليك يا رسول الله ما أحلمك وما أحكمك وما أعلمك!.

وإذْ وصف الله عباد الرحمن بأنهم إذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاماً، فقد دلّ بذلك على أنّ تعاملهم مع الناس تعامل بالخلق الحسن، إذْ في قمة ذلك الحلم والصبر على الأذى، وإعلان السلام.

* * * * * *

[٣]

الصفة الثالثة

إنَّهم يبيتون لربّهم سُجَّدًا وقياماً

أي: من صفات عباد الرحمن إنهم يتفرّغون في لياليهم لعبادة ربّهم، يتهجّدون بكثرة السجود لله وحده، وكثرة القيام لله وحده، ذاكرين الله عزّ

وجلّ بألسنتهم، وقلوبهم، وأفكارهم، يمجّدونه، ويحمدونـه، ويسبّحون بحمده، ويقدّسون له، ويسألونه خوفاً وطمعاً، يخشون عذابه، ويرجون ثوابه.

فساعات خلوة «عباد الرحمن» في ظلمات الليل، مشغولةٌ بالتوجُّه لله، يعبدونه لا يشركون بعبادته أحداً.

إنَّهم يبيتون لربِّهـم وحْدَه سُجَّداً وقياماً، لأنهم يعلمون ما في العبادة لله تعالى في ظلمات الليل، بعيداً عن كلّ رياءٍ ورغبة في سمعةٍ أو مغانم، من سعادةٍ لقلوبهم، وطمأنينة لنفوسهم، وتنـويرٍ لبصـائرهم، وشَحْنٍ لقُـواهم المعنويَّة بطاقاتٍ روحيَّةٍ عظيمة، لا يظفرون بها إلَّا بالعبادة المخلصة لله عزّ وجلّ، وبالصلة الرُّوحيَّة التي تكون لهم حينما يقفون بين يدي الله، ويُوجّهون وجوههم له، يُصلُّون قائمين وراكعين وساجدين، يذكرونه، ويناجونه، ويتلُون آياته آناء الليل.

إنَّهم يعلمون ذلك بإرشاد كتاب الله وسنة رسوله، وبالممارسة التي يذوقُون بها حلاوة الإيمان، وحلاوة العبادة، وحلاوة الصلّة بالله، وحلاوة الأُنس به، وحلاوة انفتاح البصيرة لإدراك معارف لا ينَالُها إلَّا من نَوَّرَ الله بصائرهم، وفتح مغاليق قلوبهم وأفكارهم، وأمدَّهُم بعطاء من عنده، وأدناهم إليه بالقرب والمحبَّة.

إنَّ عباد الرحمن الذين تَشَرَّفُوا بوسام العبودية لله مستظلّين بظلّ صفته الرحمن، يبيتون لربِّهم سُجَّداً وقياماً. وهذا وصف ملازم لهم غالباً كلَّما باتوا، ودخل عليهم الليل، وخلَوْا بأنفسهم لربهم.

ويتحقّق فيهم هذا الوصف بأن يقوموا متهجّدين بعض الليل، ولا يشترط أن يقوموا الليل كلّه، فالرسول الأعظم وهو سيد عباد الرحمٰن، لم

يكلّفه الله أن يقوم كلّ اللّيل، إذْ أنزل عليه في أوائل ما أنزل عليه قوله في سورة (المزّمل ٧٣):

﴿يَا أَيُّهَا المزَّمِّل (١) قُم اللَّيْلَ إلاَّ قَليلاً (٢) نِصْفَهُ أو انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦)﴾.

فناشئة الليل وهي ساعاته وآناته هي أثبت للقيام في طاعة الله وعبادته، وهي أبعد عن القلق والتذبذب في اتجاه الرياء والبسمعة وأهواء النفس وطلب الدنيا بالعبادة، وهي أقومُ قليلاً، أي: أصحُّ قولاً ومناجاةً لله، لصفاء الذهن، وسكونِ النفس، وهدوء الجوّ من الأصوات، فهي أكثر تحقيقاً للخلوة بالله ومناجاته بالذكر والدعاء وتلاوة القرآن.

ومن المجرّب أنَّ الفكر الصافي، والجوّ الساكن، والنفس الهادئـة المطمئنّة، شروط تهيّءُ أفضل الأوْقات لأن يقول الإنسان قولاً قويماً، فإذا كان في مجال البحث العلمي قال أقوم الكلم المتضمّن للعلم الصحيح، وإذا كانَ في مجال الدعاء دعا بأقوم القول المتضمّن أكرم المطالب وأحسنها، وإذا كان في مجال الذكر ذكر الله بأقوم القول المتضمّن توحيد الله والتسبيح بحمده، وإذا كان في مجال مناجاة الله ناجىٰ الله بأقوم القول في المناجاة، فتلا آيات الله بترتيل وتدبّر.

حتَّى الكاتب والشاعر يجد كلٌّ منهما في ساعات الليل لا سيما الثلث الأخير منه أفضلَ الأوقات لتوارد أفضل الأفكار وأحسنها، وأفضل الكلم وأقومه.

وعباد الرحمن إذْ يَبيتـون لربّهم سُجَّداً وقياماً، يتذوَّقون معاني التوحيد الكامل لله عزّ وجلّ، فهم يسجدون ويقومون لله وحده لا شريك له، دلّ على هذا المعنى تقديم لفظ «لربهم» على لفظتي «سُجَّداً وقياماً» في النصّ، كما

هو مقرّر عند علماء العربية، وهو من تقديم المعمول على عامله لإفادة الحصر.

وجاء في النصّ تقديم السُّجود على القيام، لأنَّ العبد يكون أقرب ما يكون من ربّه وهو ساجد، ولأن عباد الرحمن يكثرون من السجود ويطيلون فيه، ليستمتعوا بحالات القرب من الله تعالى.

والسجود تعبير مادّي جسدي عن كمال الخضوع والطاعة لله تعالى في ذات أنفسهم، وفي أعماق قلوبهم، وما دام سجودهم هذا في لياليهم وخلواتهم مع بارئهم الرحمن، فهو سجود صادق التعبير، صادق الدلالة على معنى خضوعهم القلبي والنفسي لله تعالى.

* * * * *

[٤]

الصفة الرابعة

إنَّهم يقولون في دعائهم لربّهم الذي يكرّرونه: رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّها سَاءَت مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا

غراماً: جاء في تفسير الغرام هنا إنَّه الهلاك، وإنَّه العذابُ الملازم، وإنَّه العذابُ الذي لا يُستطاع التخلّص منه.

ويعجبني ما قاله الزّجاج: إنّه أشدُّ العذاب.

أي: فعباد الرحمن يقولون: ربَّنا اصرف عنّا عَذاب جهنَّم، إنَّ عذابها كان أشد العذاب.

ويصحُّ أن يكون دعاؤُهم ينتهي بقولهم: «ربّنا اصرفْ عنّا عذابَ جهنّم». والتعليل الذي جاء بعده وهو: **﴿إِنَّ عَذَابَها كَانَ غرامًا، إِنَّها ساءَت مستقَرًّا ومُقاماً﴾** من كلام الله عزّ وجلّ.

وقوله تعالى: **﴿إنَّها ساءَت مستقرّاً ومُقامًا﴾** ذمٌّ لجهنَّم، دارِ العذاب،

سواءٌ أكان الدخول فيها دُخُولَ استقرار، أو دخولَ إقامة، وهذا يدلُّ على أن الذين يُعذَّبُونَ في جهنّم صنفان من الناس:

- صنفٌ تكون لهم مستقرّاً، أي: مكانَ استقرار.
- وصنفٌ تكونُ لهم مُقَاماً، أي: مكان إقامة.

وكلٌّ من منازل الاستقرار فيها ومنازل الإقامة منازل سيئة.

وقد يبدو الفرق بين الاستقرار والإقامة إنَّ الاستقرار بقاءٌ دائم لا تحوّل فيه، أو هو طويل الأمد، لأنَّ الشيء متى لصق في مكانه وثبت أطلق عليه إنَّه مستقرٌّ فيه، وتقول العرب: لما يلصقُ من الطبخِ بأسفل القدر قَرَارَة، وقِرَارَة، وقُرُورة، لأنَّها تَسْتَقِرُّ ولا تخرُجُ إلَّا اقتلاعاً.

أمَّا الإقامة فهي بقاءٌ نسبيٌّ لا يشترطُ فيه الدوام الطويل، **والمُقَامُ**: هُوَ المكان الذي يكون فيه هذا البقاءُ النسبيّ لمدّةٍ من الزمن لا يشترط فيها أن تكون طويلة.

ومن ذلك مقالة طائفة من المنافقين في غزوةِ الخندق: يا أهل يثرب لا مُقَام لكم فارجعوا، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ: مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ: يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾.

ومعلومٌ إنَّ الإقامة في الغزوة إقامةٌ محدودة بحدود معاركها السَّالمةِ أو الظافرة، ثمَّ بعد ذلك تكون العودة، بخلاف الاستقرار في المكان.

ومن هذا البيان يتّضحِ لنا أنَّ الاستقرار في جهنّم يكون لأهل الكفر والنفاق، وإنَّ الإقامة فيها تكون للعصاة والذين أسرفوا على أنفسهم من أهل الإيمان.

على إنَّ جهنّم في كلتا حالتيها قد ساءَتْ مُستقراً، وساءَتْ مُقاماً.

وعبادُ الرحمن يسألون الله عزّ وجلّ أن يصرف عنهم عذاب جهنّم كلّه، سواءٌ أكان عذاب أهل الاستقرار فيها، أو عذاب أهلْ الإقامة.

وهذا الدعاء يتضمّن إنَّهم يسألون الله تعالى أن يصرف عنهم ما يوجب تعذيبهم في نار جهنّم، فهو دعاءٌ بصرفِ الأسباب الموجبة، وذلك بتوفيقهم للإيمان الصادق الصحيح، والعمل الصالح، فبالإيمان يحمون أنفسهم من الكفر، ويصرفون عن أنفسهم الاستقرار في عذاب جَهنّم، وبالعمل الصالح يحمون أنفسهم من الفسوق والعصيان، ويصرفون عن أنفسهم الإقامة في عذاب جهنًم ولو كانت إقامة قليلة ويسيرة.

وما دام ذلك لا يتمُّ إلاّ بتوفيق الله، بعد صحة إرادة العبد، وصدق عزيمته، فإنَّ عباد الرحمن يعلنون عن صحة إرادتهم، وصدق عزيمتهم، في أن يكونوا من أهل الإيمان الكامل، والطاعة التامة لله عزّ وجلّ، فيدعون الله تعالى بأن يصرف عنهم عذاب جهنّم.

ويتضمّن دُعاؤهم هذا معنى توفيقهم للتوبة والاستغفار والإنابة إلى الله، إذا بدرت منهم بادرة معصية، أوْ وقعت منهم خطيئة، حتَّىٰ يكفّر الله عنهم ذنوبهم وخطاياهم، ويعفوَ بفضله عنهم، فيأتونِ بارئَهم بصحائف ليس فيها ما يقتضي تعذيبَهُمْ في نار جهنًم.

* * * * *

[٥]

الصفة الخامسة

إنَّهم إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قواماً .

أي: وكان إنفاقهم قواماً وسطاً معتدلاً لا إسراف فيه ولا تضييق. إنّ عباد الرحمن بهذه الصفة يعملون بوصيّة الله للإنسان المؤمن، إذ قال الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَابْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ ٱلشَّيَاطِينِ. وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩)﴾.

إنَّ عباد الرحمن يعملون بهذه الوصيّة الربّانيّة، فلا يكونون من المسرفين المبَذِّرين إذا أنفقوا، لأنهم يعلمون إنَّ المبذرين إخوان الشياطين، وذلك لأن الشياطين تأمر بالفحشاء والمنكر، وهذه تستدعي بذلاً بإسرافٍ في المعاصي، ومن سار في هذه الطريق المنحدرة إلى المهالك، لم يجد معه إلّا رفقاء السوء، وشياطين الأنس والجنّ تستهويه وتستدرجه، حتّى تقذف به في حمأة الإثم والمرض والمذلة، ثم في أودية سخط الله، ثم إلى جهنَّم وبئس المصير.

أمَّا الإنفاق في الخير وفي طاعات الله فلا يكون من الإسراف والتبذير بالغاً ما بلغ.

والقرآن يُعَلِّمُ المؤمنين قاعدة الاقتصاد الكبرى في الإنفاق، وهي التوسُّط والاعتدال بين القبض الشديد والبسط الشديد، فمن أسرف في

القبض أو أسرف في البسط قعد في آخر الأمر حزيناً، شديد الندم، مَلُوماً على بُخْله بالواجب إذا بخل، ومَلُوماً على إسرافه وتبذيره إذا أسرف، من الخالق، ومن المخلوقين، ومن نفسه ومحسوراً لِمَا فرّط في جنب الله، بإمساكه ما أوجب الله عليه إنفاقه، ولِمَا فَرَّطَ في جنب الله بإسرافه وتبذيره بالإنفاق في غير طاعة الله ومراضيه، وفي تضييعه ما وهبه الله من مال فيما لا فائدة منه، ولا نفع فيه، والمحسورُ هو الكالُّ الذي أصابه العجز فأقعده عن متابعة السير، ومن جنى على نفسه بسوءِ تصرُّفِه حتَّى قعدَ محسوراً عاجزاً ضعيفاً، وبات حزيناً كئيباً نادماً على ما فاته، يلوم نفسه على ما كان منه ويحمل هذا الوصف أيضاً معنى انحسار الثواب والأجر عنه، وانحسار ماله عنه في حالة التبذير وانحسار الناس عنه في حالة البخل.

وقد أبان الرسول ﷺ فائدة الالتزام بقاعدة الاقتصاد الكبرى في الإنفاق، وهي قاعدة الاعتدال والتوسط بين القبض والبسط، فقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعودٍ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ».

أي: ما افتقر وما مسَّتْهُ الحاجة من اقتصد في معيشته، والقصد والاقتصاد هو الاعتدال من غير إفراط ولا تفريط.

وهذا الاعتدال الذي أرشد إليه الإسلام في الإنفاق قد أكَّدته نصوص النهي عن البخل والشح، ونصوص الأمر بالإنفاق في الخير وفي سبيل الله، ونصوص الأمر بإيتاء ذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين وأبناء السبيل والفقراء والمساكين، وغير ذلك من وجوه البرّ.

وأكَّدته أيضاً نصوص النهي عن الإسراف والتبذير.

فإذا كان البخل والشحّ يقعان في أقصىٰ طرف الشمال، وكان الإسراف والتبذير يقعان في أقصىٰ طرف اليمين، فإنَّ الاعتدال الذي حدّده الإسلام

منهجاً للإنفاق يقع في قمَّةٍ متوسطةٍ بينهما، وهذا المنهج المتوسط هو ما توجبه الحكمة، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

ولمَّا كان الشيطان يُمَثِّلُ في حياة الناس قِمَّة دُعاةِ الشرّ والسوء والفتنة ومجافاةِ سبيل الحكمة، وكان الرحمن مصدر كلّ دعوةٍ إلى الخير والفضيلة والأخذ بالحكمة النافعة، قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢) بعد أنْ حثّ على الإنفاق في سبيل الله، وأبان واجباته وآدابه:

﴿ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَاءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم (٢٦٨) يُؤتِي الحكمةَ مَن يَشاءُ، وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوْتِيَ خَيْراً كثيرًا وَمَا يَذَّكّرُ إلاَّ أُوْلُوا الألبَاب (٢٦٩)﴾.

أي: إنَّ الشيطان ينهاكم عن الإنفاق في وجوه الخير ابتغاء مرضاة الله إذْ يخوّفكم من الفقر إذا اتّجهتُمْ لشيْءٍ من ذلك، ويأمركُمْ بالفحشاء مهما كان طريق الفحشاء يقتضي من سالكيه إسرافاً وتبذيراً.

ففي وجوه الخير يُبَخِّلُكم، وفي وجوه الشرّ يحضّكُمْ على البذلِ والإنفاق بسخاء وإسراف وتبذير.

أمَّا الله الرحيم الرحمن فهو إن وقعتم في الإثم بغلبة الهوى والشهوة دعاكم إلى التوبة والاستغفار، وهو يعدكم مغفرة منه، وإن بذلتم في سبيل الله عوّض عليكم، وهو يعدكم فضلاً منه، والله يرشدكم دائماً إلى الحكمة في الأمر، وذلك بأن تنفقوا كلما كان الإنفاق يجلُبُ لكم ثمرات طيبات، وبأن تمسكوا عن الإنفاق كلّما كان الإنفاق إسرافاً وتبذيراً وجالباً لكم شرّاً وإثماً.

وعباد الرحمن يدركون هذه الحقائق فيلتزمون منهج الحكمة، وهو المنهج المتوسط المعتدل بين القبض والبسط، فهم:

﴿إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾.

* * * * *

[٦]

الصفة السادسة

إِنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ

إنَّهم إذْ لم يُشركوا بالله أحداً، وإذْ آمنُوا به موحّدين غير مشركين، فإنَّهم لا يدعون معه إلهاً آخر، فلا يسألون إذ دعَوْا غير الله وحده، ولا يعبُدون إلَّا الله وحده ولا يُشركون بعبادته أحداً.

لقد عرفوا إنَّه لا خالق في الوجود إلَّا الله، ولا رازق إلَّا الله، ولا مُحيي إلَّا الله، ولا مميت إلَّا الله، ولا شافي ولا متصرّف في الكون إلَّا الله، فآمنوا به إيماناً خالصاً صادقاً وعلّقُوا قلوبهم به وحده.

إنَّهم نظروا إلى ظواهر نظام الكون فعرفوا إنَّ كلّ ما فيها أسباب تخضع للمهيمن العزيز الجبار، فلا تؤثر إلَّا بإذن الله، وهو الذي وضع فيها خصائصها وصفاتها. أو هي لا تؤثر إلا بقضائه وقُدره وتدبيره، وهو الذي يجري مقاديره من خلالها.

وعرفوا أيضاً إنَّ الإنس والجنّ لو اجتمعوا على أن ينفعوا أحداً بشيءٍ لم ينفعوه بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوا أحداً بشيءٍ لم يضرُّوه إلَّا بشيءٍ قد كتبه الله عليه.

لذلك فهم يباشرون اتخاذ الوسائل والأسباب طاعةً لأمر الله، ولا يعلّقون قلوبهم بالوسائل والأسباب، بل بخالق الوسائل ومسبِّب الأسباب، فهو الذي بيده مقاليد السماوات والأرض، والأسباب والوسائل لا تؤثّر إلَّا بإذنه أو أمره.

إنَّهم في ظواهر الأعمال سببيّون، وفي أعماق قلوبهم متوكّلون على الله وحده، يباشرون الأسباب، ويسألون الله أن يحقق لهم ما يرجون من نتائج،

وهذا ما يفرضه عليهم واجب الإيمان بالله، وواجب الطاعة لأوامر الله. فهم مع الله لا يدعون إلّهاً آخر، لا يدعون إلّهاً من الإنس، ولا يدعون إلّهاً من الجن، ولا يدعون إلّهاً من الملائكة، ولا يدعون إلّهاً من الأوثان، ولا يدعون إلّهاً من الموتى وأهل القبور، ولا يدعون إلّهاً من قوانين الطبيعة وأسباب الكون، لأنهم يعلمون إنَّ كلّ شيءٍ سوى الله خاضع لأمر الله، وهو مخلوق لله، ولا يكون له عمل ولا تصرُّف إلَّا بإذن الله، أو بقضائه وقدره مباشرة.

هكذا كلّ عباد الرحمن، من الأنبياء والمرسلين، والمحسنين، والمقرّبين، والشهداء، والصالحين.

ومن آثار توحيد الله في قلوب عباد الرحمن، أن يحكموا بما أنزل الله، ولا يتخذوا لأنفسهم حاكماً سواه يحكم بغير حكمه، لأنَّهم يعلمون أنَّ من مقتضى إيمانهم بأنَّه لا إلّه إلَّا الله وحده، أن يؤمنوا بأنّه لا حكْمَ إلا لله، ولمن أذن له الله، إنَّ الحاكميَّة في قلوبهم لله وحده، يأمر فيها بما يشاء، وينهى فيها عمّا يشاء، لا معقّب لحكمه، ودليلهم في ذلك: إنَّ من له الخلق لا بدَّ أن يكون له الأمر، ومن طاعة أمر الله طاعةُ من أمر الله بطاعته ضمن الشروط التي حدّدها لهذه الطاعة، إذْ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

هذه الصفة الإيمانية التي يتحلَّى بها عباد الرحمن، قد أعْلَنَهَا من قبلُ إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء ٢٦):

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ: مَا تَعْبُدُونَ؟ (٧٠) قَالُوا: نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ: هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ؟ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ؟(٧٣) قَالُوا: بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ: أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ (٧٧) ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)

وَٱلَّـذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَٱلَّذِي أَطْمَـعُ أَنْ يَغْفُرَ لِي خَـطِيئَتِي يَوْمَ ٱلدِّين (٨٢)﴾.

فأعلن إبراهيم عليه السلام إنَ الله عزّ وجلّ هو الخالق، وهو الهادي، وهو الذي يُطعمُ ويسقي، وهو الذي يداوي ويشفي، وهـو الذي يميت ويحيـي، وهو الذي يغفر الخطايا.

إذن فأية فائدة من دعاء غير الله عزّ وجلّ، وكلُّ ما سواه لا نفع عنده ولا ضرّ.

وهذه الصفة الإيمانيَّة التي يتحلَّى بهـا عباد الـرحمن، قد علّمهـا الرسول ﷺ أمَّته في روائع بياناته.

عن عبد الله بن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كنت خلف النبي ﷺ يوماً، فقال:

«يَا غُلام، إنِّي أُعلِّمَكَ كلمات. احْفَظِ الله يَحْفَظُكَ، احفظِ الله تجدْهُ تجاهكَ، إذَا سألْتَ فاسألْ الله، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بالله، واعْلم إنَّ الأُمَّة لوِ اجْتَمَعَتْ على أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشيءٍ لم يَنْفعوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قد كَتَبَهُ الله لَك، وإنِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَه الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

رواه الترمذي، وقال: هو حديث حسن صحيح.

وفي رواية عند غير الترمذي:

«احْفَظْ الله تجدْهُ أمامكَ، تَعَرَّفْ إلىٰ الله فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، واعْلَمْ أنَّ مَا أَخْطَأكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، واعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَع الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً».

*   *   *   *   *

[٧]

الصفة السابعة

إنَّهُمْ لاَ يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ

الأصل في النفس الإنسانية إنَّه يَحْرُم قتلها في دين الله مهما كان شأنها، لأن الله عزّ وجلّ قد خلقها وأمدَّها بالحياة، لتؤدي دورها في الابتلاء، ولتجتاز مرحلة امتحانها التي قضى الله أن تجتازها، ثم بعد ذلك يكون عند الله حسابُها وجزاؤُها.

ولكن مصلحة المجتمع البشري قد تقتضي بعقاب بعض النفوس الإنسانية بالقتل، فشرَع الله القتلَ في الأحوال الخاصة التي توجب الحكمة القتل فيها، والقتل في هذه الأحوال يكون قتلاً بالحق.

وعباد الرحمن إذِ اتّصفوا بأنهم لا يقتلون النفس التي حرّم الله إلاَّ بالحق، فإنَّهم ينفّذون وصيّة الله للمؤمنين، إذ قال الله عزّ وجلّ لهم في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بالحَقّ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا، فَلاَ يُسْرِفُ فِي ٱلْقَتْلِ، إنَّه كَانَ مَنْصُورًا (٣٣)﴾.

كما إنَّهم اجتنبوا ما حرَّم الله إذْ قال الله عز وجل لرسوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ، أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإيَّاهُمْ، وَلاَ تَقْرَبُوا ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلاَ تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾.

وَعَمِلوا بِقَولِ الرَّسول ﷺ الذي رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا يَحِلُّ دَمُ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ إلَّا بإحدى ثلاث: الثَّيِّبُ الزَّانِي، والنَّفْسُ بالنَّفسِ، والتَّارِكُ لِدِينِه المَفَارِق للجماعةِ».

وبقول رسول الله ﷺ الذي رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما، إنَّ رسول الله ﷺ قال:

«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إلَه إلا الله، وأَنَّ محمداً رسُولُ الله، ويُقِيمُوا الصَّلاة، ويُؤْتُوا الزَّكاة، فَإذا فعلُوا ذلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُم وَأَمْوالهُمْ إلَّا بحقِ الإسلاَم، وحِسَابُهُمْ على الله تعالى».

وقد جاء في عدّة نصوصٍ بيان الحقّ الذي يُشرعُ فيه قتل النفس.

- فالقاتل ظلماً عَمْداً وعدواناً يُقتلُ قَوداً، أي: قصاصاً.
- والزاني المحصن يُقْتَل رَجْماً، إذا ثبت عليه ذلك باعترافه دون إكراه، أو بشهادة أربعة شهود عدول، توافرت فيهم شروط الشهادة والمشاهدة.
- والمرتَدُّ عن دين الإسلام، يُقتل حماية للمجتمع الإسلامي من المتلاعبين الفتّانين.
- والذين يسعون في الأرض فساداً، فيقطعُونَ الطرق، فيقْتُلون، ويَسْلُبُونَ.

  هؤلاء يُقَتَّلُونَ ويُصَلَّبون، وتقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلافٍ على حسب أحوالهم.
- والمحاربون للمسلمين، الواقفون في طريق دعوة الإسلام، يمنعون تبليغها وانتشارها بالقهر والقوة.

  فهؤلاء يُقاتلون لإزاحَتهم عن طريق الدعوة إلى الله.

إنَّ قتل النفس الَّتي حرَّم الله قتلها من الكبائر الكبرى، وعبادُ الرحمن

لا يفعلونه إلّا إذا كان القتلُ مأذوناً به شرعاً، كيف يفعلون ذلك وهم يسمعون قولَ الله عزّ وجلّ في سورة (النساء ٤):

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (٩٣)﴾.

وهل يجرؤ على اقْتِحامِ هَذا الْخَطَرِ العظيم منْ في قلبه مثقالُ ذَرَّةٍ من العقل ومن التقوى.

إنَّه خطرٌ مؤلفٌ من أربعة عناصر، وهي: إقامة طويلة في جهنَّم، وغضبٌ من الله، وطردٌ من رحمته، وعذابٌ عظيم.

وقد صان الله عزّ وجلّ أرواح الناس في نظام الإسلام بأحكام القصاص، فقال عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢):

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَىٰ، الحرُّ بِالْحُرِّ، والْعَبْدُ بِالْعَبْدِ، وَٱلأُنْثَى بِالأُنْثَى، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ، فَمَنِ ٱعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي ٱلأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)﴾.

فمن كان من أولي الألباب، ومن الحريصين على حمايةِ أنفسهم من سخط الله وعقابه، لم يَعْتَدِ على أحَدٍ بالقتلِ، إلّا بحقِّ الإسلام، ولم يُعرِّض نفسه لعقوبة القصاصِ، ولم يُعَرِّضْ نفسه للعذاب الأليم الذي توعّدَ الله به من قتَل مؤمناً ظلماً وعدواناً.

وحَكم القصاص حكمٌ رادع للمتقين ولغير المتقين، وذلك لأنَّ الذين لا تردعهم تقوى الله عن القتل، يُراقبون ما وراء القتل من القصاص العادل الذي تتولّاه الدولة الإسلامية، فيتّقُون القصاص.

وفي قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾.

بيانٌ بديع، يرشدُ إلى نظام صيانة المجتمع من المجرمين القتلة، وذلك لأن العاقل إذا علم إنَّه إذا قتل عمداً أو عدواناً اقْتُصَّ منه بالقتل، لم يتجرأ أن يُقْدِمَ على هذه الجريمة، بل يحسب قبل أن يقدم عليها ألف حساب، يُلْجِمُهُ أنَّه يخشى أن يقتل قصاصاً.

فإعلانُ حكم القصاص في الإسلام وتطبيقه من شأنه أن يمنح المسلمين الحياة الآمنة البعيدة عن قلق الخوف من جرائم القتل.

ولو أنَّ أحكام الإسلام تُطَبَّقُ على وجهها كما أمر الله، لعاش الناسُ في دنياهم عيشاً آمناً سعيداً.

وفي بيان عظم كبيرة القتل في الإسلام جاء في كلام الرسول ﷺ:

«لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرىء مسلم».

رواه الترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال في المشكاة: والأصح إنه موقوف.

لذلك كان المتقون أبعد الناس عنه، ولما كان عباد الرحمن زمرة رفيعة من زمر المتقين كان من صفاتهم إنَّهم لا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلَّا بالحقّ.

* * * * * *

[٨]

الصفة الثامنة

إنَّهم لا يَزْنُون

فمن صفات عباد الرحمن إنَّهم لا يزنون، لأنَّهم يطيعون الله بارئهم،

وقد سمعوا آيات الله تتلى عليهم، وفيها تحريم الزنىٰ، والنهيُّ عنه، وفيها التحذيرُ منه ومن عاقبته السيئة، وفيها وفي بيانات الرسول ﷺ تقرير عقوبة الزّناة.

لقد سمع عباد الرحمن قول الله عزّ وجلّ للمؤمنين في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا (٣٢)﴾.

فانتهوا عمّا نهاهم الله عنه، وأطاعوا ليظفروا بشرف وسام القرب من الله، الذي يحمله عباد الرحمن، وهم زمرة متفوّقة من زمر المؤمنين، يتحلّون بشرف عبوديتهم للرحمٰن.

لقد علم عباد الرحمن أنَّ النهي عن الاقتراب من الزنىٰ يتضمَّن النهي عن ممارسة أسبابه، ومقدّماته، ودواعيه، فهم يكفّون أبصارهم وأيديهم وأسماعهم وسائر حواسهم، عن المعاصي التي قد تستدرجهم إلى ارتكاب فاحشة الزنىٰ والسقوط فيها.

وقد وصف الله الزنىٰ بأنَّه فاحشة، أي: ذنب عظيم وإثم كبير، ووصفه بأنه ساء سبيلاً، أي: قبُح وخبُث سبيلاً لقضاء وطر الشهوة إلى الجماع.

أمَّا كونه فاحشةً، أي: ذنباً عظيماً وإثماً كبيراً، فلأنَّ الله عزّ وجلّ شدّد النهي عنه، وشدّد العقوبة عليه، وجعله مُحرَّماً في كل ما أنزل من شرائع على عباده، منذ عهد آدم عليه السلام حتى خاتم رسله محمد ﷺ.

وقد جعل الله عزّ وجلّ ضبط النفس ومَلْكَ شهوة الغريزة في هذا المجال، والتزام جانب العفة، من الأمور الكبرى التي وُضعت إرادةُ الإنسان فيها موضع الامتحان في ظروف هذه الحياة الدنيا.

والامتحانُ وما يستتبعه هو الغاية من خلق الإنسان مزوّداً بخصائصه التي هو عليها.

وأمَّا كونه ساء سبيلاً، فذلك لأن الله عزّ وجلّ لمّا شاء أن يحرّم الزنىٰ، ويجعله مادةً كبرى من مواد ابتلاء إرادة الإنسان في الحياة الدنيا، وضع فيه من النتائج الوخيمة السيّئة ما يجعله سبيلاً سيّئاً من سُبْل ممارسة قضاء الوطر.

فمن الناحية الصحيّة جعل الله عزّ وجلّ انتشار طائفة من الأمراض الخطيرة المؤلمة، والأوبئة القاتلة، منوطاً بانتشار فاحشة الزنىٰ في المجتمع، وهذه حقيقة أثبتتها الدراسات الطبية، والمؤسسات الصحيَّة العالمية، ولا يجادل فيها مجادل لديه اطلاع على ما يقرّره الطبّ في هذا المجال.

وقد أوجز القرآن التعبير عن هذا بقول الله عزّ وجلّ:

﴿إنَّه كَانَ فاحِشةً وساءَ سبيلاً﴾.

ومن الناحية الاجتماعية جعل الله نظام المجتمع البشري قائماً على خلايا الأُسر المترابطة بالأنساب، ورتَّب على ذلك حقوق التكافل الاجتماعي بالنفقة الواجبة على الأقربين، وحقوق التوارث بالقرابة والمصاهرة، وأوجد في فِطَر الناس لدعم الترابط الأُسْرِي عواطفَ القرابة النسبية. هذا النظام الرَّبانيّ المتماسكُ بالفطرة وبالتشريع الدينيّ يخْتَلُّ متى شاع الزنىٰ في المجتمع، إذْ تُحْرَمُ الأسرة من الثقة بصحة القرابة النسبيّة، فتنعدمْ العاطفة الصادقة، فينحلُّ الالتزام بواجب التكافل، وبذلك ينهار نظام الأسرة، وما يرتبط بها من واجبات اجتماعية، ومتى شاع الزنىٰ كثر اللّقطاء الذين لا يُعرف لهم آباء يُسْألون عنهم، لاختلاط الأمر. ومتّى كثر اللّقطاء كثر الجانحون والمشرّدون وكانوا مادّة لإفساد المجتمع.

وقد أوجز القرآن التعبير عن هذه السيئات الاجتماعية مع السيئات الصحيّة بقول الله تعالى:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِنىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾.

من أجل كل ما سبق بيانه صان الله المجتمع الإسلامي عن انتشار الزنى فيه، بالنصائح الوقائية، وبالأحكام الشرعية، وبالقاعدة الإيمانيـة، وبالعقوبات المقرّرة التي تنفذّها الإدارة الإسلامية بسلطانها، وهي الجلد علناً لغير المحصن، والرجم علناً حتى الموت للمحصن.

بهذه الوسائل تخفُّ فاحشة الزّنىٰ في المجتمع الإسلامي إلى أقلّ نسبة ممكنة في المجتمع البشري.

ولا بدّ من ملاحظة إنَّه لا يتمّ إثبات الزِنىٰ قضاءً إلَّا باعتراف الزاني وهو بكامل حريته وكامل عقله، أو بشهادة أربعة شهود يشهدون عليه إنَّه زنى، وإنهم رأوا ذلك منه بأعينهم دون شبهة منهم في الرؤية، أو منه في العمل.

وفي بيان عقوبة الزاني والزانية غير المحصنين قال الله عزّ وجلّ في سورة (النور ٢٤):

﴿الزَّانِية والزَّاني فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَآليَوْمِ الآخِرِ، وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾.

ولَمَّا كان عباد الرحمن زُمْرةً مُتَفَوِّقةً مِنْ زمر المؤمنين فإنَّهم لا يَزنون، أي: لا يكون ذلك من عادتهم.

* * * * *

[٩]

الصفة التاسعة

إنَّهم لا يشهدون شهادة الزور

كيف يشهد عباد الرحمن شهادة الزور، وهي شهادة كاذبة، من شأنها أن تغيّر وجه الحقّ، وقد سمعوا قول الله عزّ وجلّ ينهىٰ عن قول الزور، سواءٌ أكان شهادة أو غير شهادةً، وذلك في قوله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزور (٣٠)﴾.

إن عباد الرحمن لا يفعلون ذلك، وهم زُمرة سابقة متفوقة من زُمر المؤمنين المتقين.

والزورُ في اللّغة: هو الكذب والباطل، وأصل مادّة الكلمة يدلّ على معنى الميل، يُقال ازوَرَّ عَنْه إذَا مال. والكذبُ والباطل ميل عن صراط الحق والصدق.

كيف يشهد عباد الرحمن شهادة الزور وهي في حياة الناس نوع خطير من الكذب، شديد القبح سَيىء الأثر؟

إنَّ الأصل في الشهادة أنْ تكون سنداً لجانب الحق، ومُعينة للقضاء على إقامة العدل، والحكم على الجناة الذين تنحرفُ بهم أهواؤُهم وشهواتهم، فيظلمون، أو يبغون، أو يأكلون أموال الناس بالباطل، فإذا تحولت الشهادة عن وظيفتها، فكانت سنداً للباطل، ومضلّلةً للقضاء، حتى يحكم بغير الحق، استناداً إلى ما تضمّنتْه من إثبات أو نفي، فإنّها تحمل حينئذٍ إثم جريمتين كُبْرَيينِ في آنٍ واحد.

الجريمة الأولى: عدمُ تأديتها وظيفتها الطبيعيّة الأولى، وهي من هذه الناحية أسوأ حالاً من كتمان الشهادة.

الجريمة الثانية: قيامها بجريمةٍ إيجابيّة، تُهضمُ فيها الحقوق، ويُظلمُ فيها البراء، ويستعان بِها على الإثم والبغي والعدوان.

فهي في هذا! كالقاضي الذي بيده سلطة القضاء ليحكُم بالعدل، فيحكُمُ بالجور والظلم والعدوان، وينصُر الظالم على المظلوم، ويشدُّ عضُدَ الباغي، اتباعاً للهوىٰ، أو طمعاً بعرضٍ من أعراض الحياة الدنيا، أو تأثُّراً بقرابة، أو استجابةً لشهوة، أو تلبية لرغبة ذي سلطان، أو ذي وجاهةٍ في قومه.

وهي في هذا أيضاً كالمستأمن الذي يخون من استأمنه.

إنَّ الجريمة في كلّ ذلك بجريمتين، والظلم بظلمين، ولكلٍّ من أصحاب هذه الجرائم كِفْلَانِ من العقاب.

إنَّ شهادة الزور من الكذب المفترىٰ، ولو لم يلاحظ فيها اشتمالها على جريمتين، وقد أبان الله عزّ وجلّ إنَّه لا يفتري الكذب إلَّا الذين لا يؤمنون، فقال تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿إنَّما يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾.

فدَلّت هذه الآية على حصر افتراء الكذب في الذين لا يؤمنون، وأقبح أنواع الكذب افتراء الكذب على الله، وشهادةُ الزور.

وأبان الرسول ﷺ أنَّ المؤمن لا يكونُ كذاباً، فقد روىٰ الإمام مالكٌ في الموطأ، عن صفوان بن سُليم، أنه قيل لرسول الله ﷺ: أيكون المؤمن جباناً؟. قال: «نعم» فقيل له: أيكونُ المؤمن بخيلاً؟. قال: «نعم». فقيل: أيكون المؤمن كذاباً؟ قال: «لا».

فدلّ هذا الحديث على أنَّ المؤمن لا يكون كذاباً، أي: لا يصل إلى مستوى تحرّي الكذب، حتى يُدمغ بأنَّه كذابٌ خُلُقه الكذب.

وقد علمنا آنَّ شهادة الزور من أقبح صور الكذب، فهي لا تصدر عن آحاد المؤمنين بحسب العادة، فضلاً عن أن تصدُر عن عباد الرحمن، وهم زمرةٌ متفوقةٌ من المؤمنين الأبرار.

وشهادة الزور من افتراء الكذب، وافتراء الكذب وافتعاله عن إصرار وتعمُّد إنَّما يفعله الكذَّابون الذين لا يؤمنون.

وفي التحذير من شهادة الزور، روى البخاري ومسلمٌ عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟».

قلنا: بلى يا رسول الله. قال:

«الإشراكُ بالله، وعقوق الوالدين».

وكان متكئاً فجلس فقال:

«ألا وقول الزور، وشهادة الزور».

فما زال يكرّرها، حتى قلنا: ليته سكت.

وروى أبو داود وابن ماجه، عن خُريم بن فاتك، قال: صلَّى رسول الله ﷺ صلاة الصّبح، فلما انصرف، قام قائماً فقال:

«عُدِلَتْ شهادةُ الزور بالإشراك بالله، عُدلت شهادة الزور بالإشراك بالله، عُدِلَتْ شهادة الزور بالإشراك بالله».

ثم قرأ قوله تعالى:

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجس مِنَ الأوثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزور (٣٠) حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكينَ بِهِ﴾ الحج (٢٢).

لذلك فإن عباد الرحمن لا يشهدُون الزور، وبذلك وصفهم الله عزّ وجلّ.

* * * * *

[١٠]

الصفة العاشرة

إنَّهُمْ إذَا مَرُّوا باللغو مَرُّوا كِرامًا

اللغوّ: هو كل ما ينبغي أن يلغى ويترك، لعدم تحصيل فائدةٍ منه، أخروية أودنيوية، قال أهل اللغة: اللّغو السَّقَط، وما لا يعتدّ به من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع.

وعباد الرحمن إذا مرّوا باللغو مرّوا وهم كرامٌ في نفوسهم، يُكرّمونها عن تضييع وقتها في اللّغو، سواءٌ أكان قولاً أو عملاً.

إنَّ عباد الرحمن يُدركون قيمة الوقت، ويعلمون إنَّ الزمن الذي يمرُّ عليهم هو رأسُ مالهم في هذه الحياة، مع ما وهبهم الله من طاقاتٍ جسدية وفكرية ونفسية، فإذا سمحوا لأوقاتهم أن تضيع في اللّغو الذي لا فائدة منه لدُنياهم أو أخراهم، فقد بدّدوا من رؤوس أموالهم بمقدار الزمن الذي أنفقوه في اللغو، وهم يعلمون أنَّ الخسارة التي يخسرونها بذلك لا تُعوّض. ولمَّا كانوا عقلاء وأهل بصيرة فإنَّهم يحرصون على أن لا يخسروا هذه الخسارة التي لا تعوّض، مهما حاول الإنسان ذلك، لأنَّ العمر محدود، ومهما طلب الإنسان التأجيل فيه لتدارك العمل لم يعطِ تأجيلاً ولا بمقدار ساعة، وإذا طلب الرجعة بعد الموت للعمل الصالح رُفض طلبه مع الزجر والتلويم.

لذلك أقسم الله بالعصر على أنَّ الإنسان لفي خسر كلمَّا مرَّ من عمره

لحظة، لأنه بمرور الزمن يُبَدّد من رأس ماله وهو عمره المقدر له تبديداً هو فيه خاسر لا محالة، فهو في مُنْزلقٌ من الخسر لكنَّ الله استثنى من عموم الخاسرين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، وذلك لأنهم ينفقون أوقات أعمارهم في تجارةٍ مع الله رابحة، وربحها عظيم جدًّا، فوق ما يستطيع تقديرَه أيُّ مقدِّر.

وعباد الرحمن من هذا القسم المستثنى، فإذا مرّوا باللّغو مرّوا كراماً، مرّوا عابراً، خشية أن يخسروا مقادير من رأس مالهم دون تحقيق ربح وفير بعمل صالح.

وشأن الكريم إنَّه إذا مرّ بشيء، لا يريد أن يُعطيَهُ من ذاته أو اهتمامه. أو وقته أو طاقاته، ولا يُريد مع ذلك أن يكون جافياً غليظاً، مرّ بخفَّةٍ ولطفٍ، فشارك بنظرةٍ عابرة وفي لمحات غير خاسرة، ولم يجفُ ولم يعنُفْ، ولم يكن فظًّا ولا غليظاً، ونصحَ برفقٍ بالغ، وأرشد إلى أنَّ العمر ثمين جداً، لا يصحُّ أن يُضَيَّع في اللغو الذي لا فائدة تحصل من ورائه ولا خير يرجى منه.

وهكذا يكون مرورُ الكرام، إنه مرور تحية وسلام، لا مرور تطفُّلٍ ومقام.

إنَّ عباد الرحمٰن من خُلُقهم علُوُّ الهمّةِ التي يترفعون بها عن محقرات الأمور وصغائرها، ويَنْشُدُونَ بها معالي الأمور وكمالاتها.

إنَّهم يدركون أنَّ التعلُّقَ بمحقراتِ الأمور من دناءة النفس وانحطاط همّتها، وهذا لا يفعله كبار القلوب والنفوس.

إنَّ كبار القلوب والنفوس أصحابُ نظراتٍ آخذة في طريق صاعدة، ومتطلّعة إلى آفاق المعالي.

واللّغْو من القول أو الفعل أو التفكير من محقرات الأمور التي لا تُهمُّ العقلاء، ولا يضيّعون فيها أوقاتهم.

فإذا مرّوا في حياتهم بأمرٍ من أمور اللّغو أعرضوا عنه، أو خَفُّوا في اجتياز ساحته، وكرَّموا أنفسهم عن النزول إلى مستواه، لأنَّ همّتهم عليّة، ولم يسمحوا لأنفسهم بأن تُضيّع في سبيله شيئاً من أوقاتهم، فزمنهم عندهم ثمين، ليس فيه محلٌ للّغو ولا للّهو.

وإذا كان اللّغو اشتغالاً بما لا يَعني، فإنّ عباد الرحمن حريصون على ما يعنيهم، ولا يشتغلون فيما لا يعنيهم، عملاً بوصية الرسول ﷺ في قوله:

«مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرءِ تركُه ما لا يعنيه».

رواه مالك وأحمد عن علي بن الحسين ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة (وهو حديث صحيح).

وعبادُ الرحمن هُمْ منَ جهةٍ مسلمون ممتازون، وهم من جهة أخرى عُقلاء أهل حصافة وبصرٍ نافذ، لذلك فهم يكرّمون أنفسهم وأوقاتهم عن الاشتغال بما لا نفع لهم منه، ولا فائدة لهم فيه، في آخرة ولا في دنيا مباحة.

واهتماماً بتربية المسلم السَّويّ المرتقي في مراتب الكمال، وصف اللَّهُ المؤمنين المفلحين بأنهم عن اللّغو معرضون، فهم لا يجعلونه فِقَرَةً من برنامج حياتهم، قال الله عزّ وجلّ في أوّل سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِم خَاشِعُونَ (٢) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣)﴾.

ووصف الله عزّ وجلّ المؤمنين حقًا وصدقاً بالكتاب الأول وصفهم بأنهم

يؤمنون بالقرآن أيضاً، ويقولون: إنَّه الحقُّ من ربّنا، إنَّا كنَّا من قبله مسلمين، ووصفهم أيضاً بأنَّهم إذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه، وقالوا للّذِينَ يلغون في أقوالهم: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلامٌ عليكم، لا نبتغي الجاهلين.

وفي شأنهم قال الله عزّ وجلّ في سورة (القصص ٢٨):

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قالوا: آمَنَّا بِهِ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَبِّنَا، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَـٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا، وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ، وقَالُوا: لَنَا إِعْمَالَنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُم، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾.

هـذا هو وصف عبـاد الرحمن، ووصف المؤمنين عـامَّة، ووصفُ المؤمنين بالكتاب الأول إيماناً حقًّا وصدقاً، ووصف العقلاء من الناس.

أمَّا الذين لا عقل لهم يُبصّرهم بما ينفعُهم، ويكبَحُ جماحَ أهوائهم وشهواتهم، ولا حصانة لديهم تجعلهم يَحرصون على مـا فيه منفعتهم وفائدتهم، فهم يتَّبعون اللَّغو واللَّهو والمساخر، ويبذلون في ذلك أموالهم وحياتهم، ويُضيّعون عمرهم وطاقاتهم سُدى.

ولو أنهم عقلوا لسَعَوا فيما فيه فائدتهم ومنفعتهم العاجلة أو الآجلة، وكلّما زاد عقل الإنسان كان حرصه الأكبر على أعظم خير يمكن أن يناله بعمله، ألا وهو خير الآخرة.

* * * * *

[١١]

الصفة الحادية عشرة

إنَّهم إذا ذكّروا بآيات ربّهم لمْ يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُمْياناً

فعباد الرحمن من خلائقهم الدائمة إنَّهم إذا ذُكّروا بآيات ربِهم تذَكَّروا وتدبروا، وخرُّوا لله سُجَّداً، وسَبَّحوا بِحمدِ ربِّهم، وهم لا يستكبرون ولم يخرّوا عليها كما يفْعَلُ الغافلون والمنافقون خُرُوراً شكلياً، لا من أعماق قلوبهم ونفوسهم، فأفكارهم وتَصوُّراتهم منصرفة عن آيات الله وما فيها، منشغلةٌ لاهية بشؤون الحياة الدنيا ومتاعها ولذاتها ومطامعها، فهم عن آيات الله المشهودة بمثابة العُمْيِ، وعن آيات الله المتلوّة بمثابة الصُّمُّ، هذا حال المنافقين والغافلين.

أمَّا عباد الرحمن فهم مؤمنون بآيات الله المشهودةِ والمتلُوَّة، مُدْرِكون أنَّها آياتٌ دَالَّات على وجود الله، وكمالِ صفاته، فإذا ذكّروا بها كان موقفهم تُجاهها كما ذكر الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة ٣٢):

﴿إنَّما يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً ۩ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦)﴾.

أي: فمن شأن المؤمنين أنَّهم إذا ذكروا بآياتِ ربهم خضعوا لها، وأعلنوا عن خضوعهم النفسي والقلبيّ لها، بأنْ يَخِرُّوا سجّداً لله، مُتَذَكِّرين، مسبّحين بحمده، سامعين لما في مَتْلُوّها، ومتدبرين لـه، ومتفكرين في مشهودها ومدركين لدلالاته وإشاراته، وفي تدبّرهم وتفكّرهم يستبصرون أوامر الله ووصاياه ونصائحه وهدايته، ويستبصرون المنهج الذي تُرشـدهم إليه وتدلّهم عليه.

أمَّا معنى أنَّهم إذا ذكّروا بآيات ربِّهم لم يخرُّوا عليها صمًّا وعمياناً، فهو ـ والله أعلم ـ إنَّهم إذا ذُكِّروا بآيات ربِّهم خرّوا ساجدين لله سامعين مبصرين، لا صُمَّاً وعمياناً كما يفعل المنافقون والغافلون.

والذين يتعجلون في تدبّر كلام الله يُشْكِل عليهم هذا التعبير، أمَّا من يُمعن التدبّر، وينظر في آيتي الفرقان والسجدة معاً، فإنّه يفهم المراد إن شاء الله، وهو ما سبق بيانه.

وللزمخشريّ بيان لطيف في تفسير آيه الفرقان. إذ قال قوله تعالى: **﴿لَمْ يَخرُّوا عَلَيْها صُمًّا وعُميانًا﴾** ليس بنفي للخرور إنما هو إثبات له، ونفيٌ للصَّمَمُ والعمى، كما يُقال: لا يلقاني زيدٌ مُسَلِّماً، هو نفي للسّلام لا للّقاء، والمعنى: إنَّهم إذا ذُكّروا بها أكبُّوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكّر بها، وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذانٍ واعية، مبصرون بعيونٍ راعية، لا كالَّذين يذكّرون بها فنراهم مكبّين عليها، مقبلين على من يذكِّرهم بها، مظهرين الحرص الشديد على استماعها، وهم كالصمّ والعميان، حيثُ لا يفهمونها ولا يُبصرون ما فيها، كالمنافقين.

وهذا الذي نبّه عليه الزمخشريّ ونقله عنه الرازي صحيح وسديد، بدليل الآية التي في السجدة.

ولدى ملاحظة أحوال الناس لدى تذكيرهِمْ بآيات ربِّهم المسموعة أو المنظورة في كلّ ما خلق الله من شيء، يتبيَّن لنا إنَّهم ينقسمون إلى أقسام أربعة:

القسم الأول: قسم يُذَكَّر بآيات ربّه فيُعْرِض عنها مباشرة، دون أن يعطيها من نفسه عاطفةً ولا فكراً، ولا سمعاً ولا بصراً.

إنَّه قد أقام في داخل نفسه ابتداءً ما يَصدُّها عن كل خير وهداية ونصح، فهو لا يتقبّل ما يهديه إلى الحقّ، أو يخفف من غلواء تعلّقه بالدنيا وزينتها، وشهواتها ومَلذاتها وتفاخرها وتكاثرها.

وهذا القسم من الناس بينه وبين هداية ربّه حجابٌ غليظ، من أهوائه وشهواته وكبر نفسه واستغراقه في الحياة الدنيا، وقد أشار القرآن إلى هذا القسم من الناس بقول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف ١٨):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا. وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧)﴾.

فقلوب أهل هذا الصنف في أكنَّة، لا تفقه ما تُذَكَّر بهِ من آيات ربّهم، وفي آذانهم صمم، فهي لا تسمع نُصحاً مهما كان بَيّناً واضِحاً لا يحتاج إلى دليل.

القسم الثاني: قسمٌ يُذَكَّرُ بآيات ربِّهِ فيسمعُها، ويتفكَّرُ في دلالاتها، وقد ينتفع بها، لكن تغلبُه بعد ذلك شهواته وأهواء نفسه، فيُعْرِض بعد تفكُّرٍ وتَدبُّر وتفهُّم.

وهذا قسم من الناس يصطرعُ لديه الفكر والهوى، ثُمَّ يكون الهوى هو الغالب، فتخضعُ إرادتُهُ لهواه فيُعرضُ عنْ آيات ربّه بعد التأمل فيها.

وفي الإشارة إلى هذا القسم من الناس قال الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة ٣٢):

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا. إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢)﴾.

هذا القسم من الناس هو قسْمٌ مجرم كالقسم الأول، إلَّا إن احتمال إصلاحه أرجىٰ من إصلاح القسم الأول، ولذلك جاء في بيان حال القسم الأول قول الله تعالى:

﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

ولم يأتِ مثل ذلك في بيان القسم الثاني، ودلّنا على أنهما قسمان مختلفان قول الله في بيان القسم الأول:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذكّر بآيات ربِّه فأعرض عنها﴾. فعطف فعل «أعرض» بالفاء.

وقول الله في بيان القسم الثاني:

﴿ومن أظلم ممَّن ذُكّر بآيات ربّه ثمَّ أعرض عنها﴾ فعطف فعل «أعرض» بثُمَّ.

القسم الثالث: قسمٌ منافقٌ يُذَكر بآيات ربّه فيشاركُ المؤمنين في مظهر الاستجابة لها، فيخرُّ ساجداً سجود الجسد فقط، لكِنَّ قلبَهُ كافر، فأُذُنه صماء، وعينه عمياء.

وقد جاء التعريض بهذا القسم ضمن الحديث عن وصف عباد الرحمن، لأنه مندس في زمرة المؤمنين، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَالَّذِينَ إذا ذُكِّروا بآيات ربِّهم لَمْ يَخِرُّوا عليْهَا صُمًّا وعُمْيانًا (٧٣)﴾.

أي: لم يكونوا كالمنافقين، بل خرُّوا سميعين مبصرين، وهذه هي حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم.

القسم الرابع: وهو قسم المؤمنين، وهم الذين بيّن الله وصفهم بقوله عزّ وجلّ في سورة (السجدة ٣٢):

﴿إنَّما يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّدًا وسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِم وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (١٥)﴾.

وعبادُ الرحمن من هذا القسم، وقد يمتازون بفضل بصيرة وطاعةٍ وعبادةٍ.

[١٢]

الصفة الثانية عشرة

إنَّهُم يدعُون الله بقوْلِهم: رَبّنا هبْ لنا من أزواجنا وذُرّياتنا قُرَّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً .

إنَّ عباد الرحمن يهتمون بأن يدعوا ربّهم بدعاءٍ ذي شقين:

الأول: أن يهبهم الله قرّة أعين من أزواجهم وذرّياتهم، وهذه لدنياهم، ثم يكون لها امتداد إلى أخراهم.

الثاني: أن يجعلهم الله للمتقين إماماً، وهذه لأخراهم، وإمام المتقين لا بُدَّ أن يكون من زمرة ممتازة تصلح للإمامة، فهم إمَّا أبرار، أو محسنون، ولا يكون إماماً للمتقين إلَّا من آمن وعمل صالحاً، ثم توسع في أعمال البرّ والإحسان، فكان بذلك قدوة لهم يأتمُّونَ به في أعمالهم، وأقوالهم، وأخلاقهم.

ونستطيع أن نفهم من هذا التوجيه لهذا الدعاء حاجة الأمّة الإسلامية إلى أئمة يكونون قدوة حسنة للمتقين، والمفروض فيهم أن يكونوا من فئة عباد الرحمن، أبراراً أو محسنين.

فعباد الرحمن يسألون الله أن يرفعهم في مراتب المؤمنين السابقين وذلك بتوفيقهم للاستزادة من الأعمال الصالحة المبرورة، التي هي من مرتبة البرّ أو مرتبة الإحسان، حتى يؤهلهم ذلك لأن يكونوا أئمة للمتقين، والإمام يقتدى به، ويكون لمن ائتمَّ به أسوةً حسنة.

وعباد الرحمن يسألون الله أيضاً: أن يهبهم من أزواجهم وذرّياتهم من يكون لهم قُرَّة أعين، وهم لا يكونون لهم قرة أعين ما لم يكونوا من المتقين، ومعهم في جنّات النعيم، ثمَّ يُضاف إلى صفة التقوى الصفات الأخرى التي تسرّ الناس عادةً من أزواجهم وذرّياتهم.

فمن الأزواج الملاءمة، وحسن المعاشرة، وحسن الخلق، والطاعة، والصفات النفسيّة والجسدية الأخرىٰ التي تساعد الزوج على أن يكون أكثر غضًّا للبصر، وأكثر حصانة وعفّة.

ومن الذريات الطاعة والبرّ، وأن يكونوا موفقين سعداء في حياتهم، أمجاداً أطهاراً، أصحاب ذكر حسن، إلى غير ذلك ممّا يسرُّ الآباءَ أن يجدوه في أبنائهم.

وقُرُّ الأعين: برْدُ الأعين، ولا تكون الأعين كذلك حتى تمتلىءَ الأنفس و القلوبُ سروراً.

فعباد الرحمن إذ يسألون ربّهم أن يهبهم من أزواجهم وذرّياتهم قُرة أعين، وأن يجعلهم للمتقين إماماً، فإنهم يسألون الله عزّ وجلّ أمتع ما في الحياة الدنيا، وأرفع مرتبةٍ إيمانية تهيِّئُهم لأرفع منزلة وأنْعمها يوم الدين، في الغُرُفات العاليات من جنّات النعيم.

وفي كلام الرسول ﷺ:

«الدنيا كلها متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

ثم إنَّ أجلَّ ما يصيب الإنسان من سعادة في الحياة الدنيا الذّرّية النجيبة، البارّة الرشيدة السعيدة.

لذلك دعا إبراهيم عليه السلام ربّه أن يهبه ذرّية من الصالحين، فقال: ربّ هبْ لي من الصالحين.

قال الله عزّ وجلّ يقُصُّ علينا جانباً من قصة إبراهيم عليه السلام في سورة (الصافات ٣٧):

﴿وقال: إنِّي ذَاهِبٌ إلىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي من الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١)﴾.

ولذلك أيضاً دعا زكريًا ربّه أن يهبه ذرّية طيبة، قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران ٣):

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ: رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ ٱلصَّالِحِينَ (٣٩)﴾.

ولما جعل الله إبراهيم عليه السلام إماماً، رغِبَ مثل ذلك لِبَعْض ذُرّيته، فقال: ومن ذُرّيتي. فقال الله له: لا ينالُ عهدي الظالمين.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢):
﴿وَإِذْ ابْتَلَى إبراهِيمَ رَبُّهُ بِكلماتٍ فَأَتَمَهُنَّ. قال: إِنّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماماً. قال: وَمِنْ ذُرِيَّتي. قال: لا يَنالُ عَهْدي ٱلظَّالمينَ (١٢٤)﴾.

فالله تبارك وتعالى جعل إبراهيم للناس إماماً، بعدُ أن امتحنه بكلمات من الأوامر والنواهي والتكاليف الشاقة على النفوس، فأتمهُنَّ إبراهيم عليه السلام، واجتاز الامتحان بنجاح باهر، فأعطاه الله شهادة التفوُّق في الامتحان، وأعطاه حقَّ التقدم والإمامة للناس، فكان بعد ذلك أسوة حسنة للناس حتى الأنبياء والمرسلين من بعده.

قال الله عزّ وجلّ للمؤمنين في سورة (الممتحنة ٦٠):
﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعه إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِم: إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُم وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَفَرْنَا بِكُم، وبَدَا بَيْنَنا وَبَيْنَكم ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبداً حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِالله وَحْدَهُ... (٤)﴾.

إن مطلب الإمامة الذي يسأله عبادُ الرحمٰن لأنفسهم، إذْ يقولون: واجعلنا للمتقين إماماً، مطلبٌ لا يكفي للوصول إليه أن يكون الإنسانُ من

المتقين فقط، فإمام المتقين لا بدّ أن يكون من المحسنين المتفوّقين في مراتب الإيمان والعمل الصالح، أو يكون من الأبرار، وهم فوق المتقين، ودون المحسنين.

ولمَّا كان إبراهيم عليه السلام من المحسنين، جعله الله عزّ وجلّ إماماً للناس.

ولمَّا كان إسحـٰق ويعقوب عليهما السلام من المحسنين، جعلهما الله من الأئمة الذين يهدون بأمره.

قال الله عزّ وجلّ في سياق الحديث عن إبراهيم ولوط في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إسْحـٰقَ ويَعْقُوبَ نافِلةً وكُلاًّ جَعَلْنَا صالِحينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُم أئمةً يَهْدُونا بِأَمْرِنا، وأَوْحَيْنَا إلَيْهِم فِعْلَ ٱلْخَيْراتِ وإقَامَ الصَّلاةِ وَإيْتَاءَ الزَّكَاةِ، وَكَانُوا لَنَا عَابِدينَ (٧٣)﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في شأن أنبياء بني إسرائيل في سورة (السجدة ٣٢):

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُم أئِمةً يَهْدُونَ بأمرنا لمَّا صبروا، وكانوا بآياتنا يوقنون (٢٤)﴾.

فمرتبة الإمامة مرتبة خطيرة، إنها وظيفةٌ من وظائف النبوة، ولا ينالها عند الله إلاَّ المحسنون أو الأبرار، وهم عباد الرحمن.

* * * * * *

الفَصل الثَالِث

مع النصّ في التدبّر



١ - ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِين يَمْشونَ علىٰ الأَرضِ هَوْنًا﴾.

عباد: جمع مفردَه عبد. ويجمع أيضاً على عبيد وأعْبُد وعُبدان.

هوناً: الهَوْنُ هو العمل والتصرّف برفق وسمتٍ حسنٍ، وعقلٍ وروية.

فمن صفات عباد الرحمن إنهم يمشون على الأرض هوناً، أي يمشون برفق وسمتٍ حسن، وعقلٍ وروية، وضدّ ذلك السعي والهرولة والركض دون مقتضٍ لذلك، وضدّه أيضاً المَشي بعنف، أو كبر وضرب للأرض وتطاول في السماء، وكذلك المشي بضعف وتماوت، والمشي بخفة ورعونة، أو خفق سريع بغير رويَّة ولا عقل، أو طلب للدنيا بمغالبة ومقاتلة ومنازعة لأهلها.

وأضداد مشْي الهون ليس من صفات عباد الرحمن.

٢ - ﴿وَإذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قالُوا: سلاماً﴾.

أي: ومن صفات عباد الرحمن إنهم إذا خاطبهم الجاهلون خطاباً بجهالة، من شأنه أن يستثير الغضب والتخاصم والتقاتل، قالوا: سلاماً. أي: نسلم سلاماً نفارق فيه مجلسكم ومخاطبتكم، لأننا لا نريد أن نشارككم جهالةً بجهالة، وسفاهةً بسفاهة.

وذلك لأن الجاهلين لا يلجؤون إلى منطق العقل والحكمة، بل

يلجؤون إلى السفاهة، والبذاءة، والشتائم وأشباهها، ليعوّضوا بذلك عن نقص عقلهم، أو انعدام حجتهم، أو حماقتهم، أو عدم قدرتهم على المناظرة بالعلم والحكمة والحجة الصحيحة.

فيتخذون من صراع الشتائم والهزء والسخرية، ثمَّ التضارب والتقاتل، بديلاً للعقل والعلم والحكمة والحجة البرهانية والحوار المنطقي.

وعباد الرحمن يترفعون عن كلّ ذلك، بما لديهم من خلق إيماني إسلامي رفيع.

إذن: فلا سبيل لهم إلاّ الإعراض والانصراف مع تقديم التحيَّة المهذبة، فيردّون على الخطاب الخشن الذي يخاطبهم به الجاهلون بقولهم: سلاماً.

عبارة موجزة جداً، فيها تحيَّة بالسلام، والسلام هو الأمن، وهذه التحية تتضمّن إعراضاً وانصرافاً، وتعليماً لهم، أنَّ الواجب الاجتماعي يوجب التعامل بالسلام، لا بالجهل والتغاضب والخصام.

وأصل الجهل عدم العلم، ولكنه أخذ من واقع حال الجاهلين معنى السفاهة في الخطاب والمواجهة بالحماقة والشتائم والتطاول القبيح.

٣ - ﴿وَالَّذِين يَبِيتُونَ لِرَبِّهِم سُجَّدًا وقِياماً﴾.

سُجّداً: جمع ساجد، وأصل السجود الخضوع وطأطأة الرأس، والسجود في الصلاة له صفة خاصة معروفة، توضع فيه الجبهة والكفان والركبتان ومقدّم القدمين على الأرض.

قياماً: جمع قائم، ويجمع أيضاً على قُوَّم وقُيَّم وقُوَّام وقُيَّام.

أي: ومن صفات عباد الرحمن إنهم عُبَّادٌ لربهم، خاضعون له بإخلاصٍ وصدق، فهم إذا دخل عليهم الليل باتوا لربّهم، ولم يبيتوا

لأهوائهم وشهواتهم، فهم يجعلون ليلهم لربهم، أي: لعبادة ربهم، حالة كونهم فيه سُجَّداً وقياماً.

ولمَّا كان ليلهم لعبادة ربهم فهم في عبادة لله عزّ وجلّ، بالصلاة والذكر والتفكر، ساجدين وقائمين.

وفي تقديم السجود على القيام إشعارٌ بأنَّ السجود أفضل من القيام، لأنه أكثر تعبيراً عملياً عن خضوع النفس والقلب لله عزّ وجلّ، والقول بأن السجود أفضل من القيام هو رأي جمهور أهل العلم.

أو هم يبيتون سجّداً وقياماً لربهم، وقُدّم المعمول على العامل للحصر، أي: فهم يبيتون سُجداً وقياماً لربهم وحده لا شريك له، فهم لا يشركون بعبادة ربهم أحداً.

وصلاة العابد خالياً بربّه في جوف الليل أقرب إلى الصدق والإخلاص لله، والبعد عن الرياء والسمعة.

قد يقال: فأين الركوع؟، ويمكن أن يجاب بأن السجود لغة يشمل الركوع والسجود الشرعي.

٤ ـ ﴿وَالَّذِين يقُولُونَ: رَبَّنا اصْرِفْ عنَّا عذابَ جهَنَّم إنَّ عذابها كان غَرَامًا، إنَّها ساءَت مُستقرًا ومُقامًا﴾.

غراماً: ملازماً لا يستطاع التخلص منه، أو هو أشد العذاب.

أي: ومن صفات عباد الرحمن إنهم يخشون الله دواماً، فهم يجدّدون باستمرار دعاءهم لربهم بأن يصرف عنهم عذاب جهنم.

ويظهر أنَّهم يشعرون دائماً بتقصيراتهم، وأنَّهم يستحقون بسبب معاصيهم ومخالفاتهم وتقصيراتهم التي قد تقع منهم، أن يُعذبوا بعذاب جهنم، ولو كان عذاب مقيمٍ إقامةً قليلةً لا عذاب مستقرٍّ خالدٍ فيها.

لذلك فهم يسألون الله من فضله أن يغفر لهم، وأن يصرف عنهم بعفوه وغفرانه، وفضله وامتنانه، عذاب جهنَّم الذي قد يستحقونه بأعمالهم.

وبهذا يبدو أن الوقوع في المعاصي لا يتنافى مع كون المؤمن المسلم من فئة عباد الرحمن، لأنهم بشر وليسوا بمعصومين، وهذا المعنى يؤيّده قول الله عزّ وجلّ في سورة (النور ٢٤):

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ الله عَلَيكُم وَرَحْمَتُهُ مَا زَكىٰ مِنْكُم مِن أَحَدٍ أَبدًا، ولكنَّ الله يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ، والله سَميعٌ عَليمٌ (٢١)﴾.

أي: ولولا فضل الله عليكم بالحفظ والتوفيق، ورحمته لكم بالغفران والعفو، ما زكى منكم من أحدٍ أبداً.

فهذا التعميم يشمل المتقين والأبرار والمحسنين ومنهم عباد الرحمن مهما استقاموا.

لذلك فهم بحاجة دائمة إلى الدعاء في أن يصرف الله عنهم عذاب جهنَّم، بالحفظ من الوقوع في المعاصي وهو فضل من الله، أو بالغفران والعفو بعد الوقوع في المعاصي، وتلك رحمة من الله.

وفي مقالتهم في دعائهم: إنَّها ساءت مستقرّاً ومقاماً، إشارة إلى مواطن تخوّفهم، فهم يخافون من جهنَّم أن تكون لهم مستقرًّا بالشرك أو ما هو شرٌّ منه، ويخافون أن تكون لهم مقاماً بالمعاصي التي لا تكون مشمولة بعفو الله وغفرانه.

وفي ذكر هذه المقالة ضمن دعائهم معنى الاستعطاف واستدرار رحمة الله.

٥ ـ ﴿والَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَم يَقْتُروا وكانَ بينَ ذَلِكَ قوامًا﴾.

يقتُروا: يضيقوا النفقة، تقول: قَتَر يقتِر ويقترُ قتْراً وقُتُوراً.

قواماً: أي: عدلاً غير مائل ولا جانح.

أي: ومن صفات عباد الرحمن إنَّهم يدركون قيمة المال في الإِسلام، وأنه قد جعله الله للناس قياماً، فيه قيام معاشهم.

فهم يلتزمون بمنهج الإِسلام في إنفاق الأموال، فإذا أنفقوا لم يسرفوا في المعاصي والترف والرفاهية الزائدة، زهداً بمتاع الحياة الدنيا، واستخداماً للمال فيما خُلق من أجله. ولم يقتروا على أنفسهم وأهليهم، بل منهجهم في إنفاق المال منهج وسط، لا إسراف فيه ولا تقتير.

٦ ـ ﴿وَالذينَ لا يدعون مع الله إلَهاً آخر﴾.

أي: ومن صفات عباد الرحمن، إنَّهم لا يدعون حينما يدعون سائلين من قوة غيبيّة لأمرٍ من أمور دنياهم أو آخرتهم مع الله إلَهاً آخر.

فلا يشركون في دعائهم أحداً مع الله، لأنهم مؤمنون بأن الله وحده هو الرب الخالق الرازق، الذي بيده جلب النفع ودفع الضر، وإن أحداً في الوجود غير الله لا يملك جلب نفع أو دفع ضرّ لم يقضِ به الله، أو لم يأذن به الله.

إذن فهم لا يشركون بدعائه أحداً.

والشرك أخفّ دركات الكفر، وإذا كانوا غير مشركين في الدعاء، فهم من باب أولىٰ ليسوا بجاحدين لله، ولا مؤمنين بالطواغيت.

وعباد الرحمن لا يسمحون أن تدخل على نفوسهم عناصر من الشرك الخفي، فلا يدعون أنبياء، ولا أولياء، ولا ملائكة، ولا أيّ خلق من خلق الله، إنَّهم لا يدعون مع الله إلَهاً آخر.

٧ ـ ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفسَ التي حَرَّمَ الله إلَّا بالحقّ﴾.

أي: ومن صفات عباد الرحمن إنَّهم لا يقتلون النفس التي حرَّم الله

قتلها، مهما تحركَّت في نفوسهم الدواعي إلى ذلك، إلاّ بالحقّ الذي أمر به الله عزّ وجلّ أو أذن به، كحدٍّ أو قصاصٍ أو قتالٍ لإعلاء كلمة الله. . . .

والقتل الذي لم يأذن به الله، لإنسان معصوم الدم، هو من الكبائر الكبرى، فعباد الرحمن شديدو الحذر من الوقوع به.

٨ ـ ﴿ولا يَزْنُونَ﴾.

أي: ومن صفات عباد الرحمن أنّهم لا يزنون، لأنهم حريصون كلّ الحرص على اجتناب كبائر الإثم، فهم يبتعدون عن المواطن التي تجرّهم إلى السقوط في كبيرة الزنى، ويتخذون الوسائل التي أمر الله بها، ليكونوا قادرين على الإمساك بحبل العفة.

وإذا كانوا لا يزنون فهم لا يرتكبون من الفواحش ما هو أقبح من الزنى، كاللّواط.

٩ ـ ﴿وَمَنْ يَفْعَل ذَلِكَ يَلْقَ أثَامًا، يُضَاعِفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيه مُهانًا﴾.

ذلك: المشار إليه في النص كبائر الإثم التي يجتنبها عباد الرحمن وهي الشرك، وقتل النفس التي حرَّم الله قتلها إلاَّ بالحق، والزنىٰ.

أي: ومن يفعل هذه الكبائر التي سبق تبرئة عباد الرحمن منها، يَلْقَ أثاماً، أي: يلْقَ عقابَ إثْمِه الكبير، يُضَاعفْ له العذابُ يوم القيامة، ويخلُدْ في هذا العذاب مُهاناً، فهو عذاب مقترن بإهانةٍ وإذلال.

يلق أثاماً يضاعف: يلْقَ مجزوم على أنه جواب الشرط وجزاوه، أمَّا يضاعف فهو أيضاً مجزوم على أنه بدل من يَلْقَ.

أثاماً: أي: جزاء الإثم. قال الفراء: أثَمَهُ الله يأثِمهُ إثْماً وأثاماً إذا جازاه جزاء الإثم، فالعبد مأثوم، أي مجزي جزاء إثمه.

١٠ ـ ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

يستثني الله عزّ وجلّ ممَّن استحق أن يلقى أثاماً فيضاعف له العذاب ويخلد فيه مُهاناً من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً.

أي: إلَّا من تاب ممَّا تلوث به من كبائر الإثم التي سبق ذكرها (الشرك ـ القتل ـ الزنى) فرجع إلى ربّه نادماً، وآمن إيماناً صحيحاً صادقاً مؤثّراً في توجيه الإرادة للعمل الصالح، وعمل عملاً صالحاً يرضى به الله عنه، فأكّد بعمله الصالح واستقامته صدق توبته وإيمانه، فإن الله يتوب عليه، ويرفع عنه ما استحقه من عقاب، ويزيده فضلاً فيبدّل سيئاته حسنات، ويُثِيبَه عليها، إذْ يحتسبها له بالتوبة حسنات. وهذا كرم عظيم، وفضل من الله جسيم، إذ يجعل سوابق سيئاته التي ارتكبها قبل التوبة والإيمان والعمل الصالح حسنات.

وهذه صورة من التشجيع على التوبة وصدق الإيمان والعمل الصالح بعد التوبة عجيبةٌ في قواعد الحساب والجزاء، فالتوبة وتوابعها تقلب بفضل الله السيئات من حضيض المعصية فتجعلها بمثابة حسنات كان قدَّمها الإنسان العاصي التائب، فكأن كان قد بدأ إيمانه وأعماله الصالحات منذ نشأته.

إنَّها والله لرحمة عظيمة من الله الغفور الرحمن الرحيم، وتشجيع بديعٌ جداً للعصاة مهما بلغت معاصيهم حتى يتحوّلوا إلى مراتب السابقين من عباد الرحمن بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، لينالوا هذا التبديل الذي هو فوق الغُفْران والعفو بدرجات عظيمَة.

ويظهر أن تبديل السيئات حسنات خاصٌ بمن ارتقى حتى غدا من فئة عباد الرحمن، لأن النص ورد بشأنهم وفي سياق بيان صفاتهم.

وكان الله غفوراً رحيماً: أي: ووصف الله الدائم الثابت إنَّه غفورٌ رحيم.

١١ ـ ﴿ومنْ تَابَ وعَمِلَ صَالحًا فَإنَّه يَتُوبُ إلىٰ اللَّهِ مَتَابًا﴾.

يبين الله في هذه الآية قاعدة المتاب الصادق النّصُوح، فالمتاب الصادق النّصُوح هو ما تبعه العمل الصالح، ويكون ذلك بالإقلاع عن فعل ما تاب عن فعله من المحرّمات، وبالمواظبة على فعل ما تاب عن تركه من الواجبات.

ونكَّرَ «مَتاباً» إشارةً إلى أنَّه متابٌ حسنُ المكانة، وهو المتاب الصادق النصوح.

١٢ ـ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾.

أي: ومن صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون شهادة الزور وشهادة الزور هي الشهادة الكاذبة، وهي من الكبائر الكبرى.

وعباد الرحمن الذين هم فئة ممتازة من المتقين، ليس من شأنهم أن يرتكبوا هذه الكبيرة، لعظم جرمها في تضليل القضاء، والمساعدة على هضم حقوق أصحاب الحقوق، وظلم الناس للناس.

ونتساءل فنقول: لماذا لم يجمع الله عزّ وجلّ هذه الكبيرة مع الكبائر السابقة التي هي (الشرك والقتل والزنى) ويظهر لي أنَّ شهادة الزور لا تكون مشمولة بعد التوبة بفضل تبديل سيئتها إلى حسنة، لأنَّ كبيرتها تتعلّق بحقوق العباد وظلمهم، وهذه لا بدّ من المقاصة فيها، أو عفو أصحاب الحقوق.

والزورُ في اللغة: يطلق على الكذب وعلى الباطل، وشهادة الزور هي شهادة الكذب، وشهادة الباطل.

١٣ ـ ﴿وإذَا مرُّوا باللَّغو مَرُّوا كِرامًا﴾.

أي: ومن صفات عباد الرحمن إنَّهم لا يتوقفون طويلاً عند اللغو من القول أو العمل، بل يسيرون سراعاً، ولو كان من المباحات، فضلاً عن الملاهي سواء أكانت مباحة أو محرَّمة.

والسبب في هذا إنَّ عباد الرحمن حريصون على أعمارهم وطاقاتهم، ويسوؤهم أن تضيع سُدىً، دون اغتنام ما يكسبون به أجراً عند ربّهم.

ولا يفيد هذا أنَّهم لا يشاركون مطلقاً بأي لغو أو لهو مباح، لكنَّهم يكتفون بمجرّد المرور عليه مرور الكرام، ومعلوم إنَّ مرور الكرام هو المرور الخفيف الذي لا تصاحبه إقامة مؤقتة، فضلاً عن استقرار فيه زمناً طويلاً.

واللغو في اللغة: هو السَّقط وما لا يُعْتَدُّ به من كلام وغيره، ولا يُحصَل منه على فائدة ونفع.

١٤ - ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكّروا بآيات ربّهم لم يخِرُّوا عليها صُماً وعُمياناً﴾.

أي: ومن صفات عباد الرَحمن إنَّهم إذا ذُكروا بآيات ربهم خرُّوا سُجَّداً لربهم سامعين مبصرين، متفهمين لما تتضمن، ومتدبرين لدلالاتها.

ولا يكون شأنهم كشأن المنافقين الذين يخرُّون عليها خروراً جسدياً فقط، مشاركة لمن حولهم من المسلمين، وهم عن دلالاتها صمٌّ وعميان، وقلوبهم ونفوسهم لم تخضع ولم تسجد، بل هي كافرة مستكبرة، أو مترددة متحيرة.

وفي هذا الأداء البياني لون من الإيجاز بديع، إذ دلّ على صفة عباد الرحمن بأسلوب نفي صفة المنافقين عنهم، فاشتمل النص بهذا على صفتهم وصفة المنافقين معاً.

١٥ - ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ: رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرّياتِنا قُرَّة أَعْيُن، واجْعَلْنَا لِلمُتَّقِينَ إماماً﴾.

قُرَّة أعْيُن: أي برد أعين، وهو كناية عن غاية السرور والسعادة بالأزواج والذرية.

إماماً: الإمام هو الرئيس الذي يؤتم به، والقائد، والخليفة، وقيّم الأمر المصلح، وكلّ من يُؤتَمُّ به ويقتدى بعمله أو قوله أو خلقه.

هذا دعاء يدعو به عباد الرحمن:

أ - فمن الدنيا يسألون الله قرة أعين من أزواجهم وذرياتهم.

ب - ومن العمل للآخرة يسألون الله أن يوفقهم إلى أن يكونوا متقين وأبراراً أو محسنين، حتى يكونوا أئمةً للمتقين.

ولا يكون إماماً للمتقين إلاَّ من هو في مرتبةٍ فوق مرتبة المتقين، فهو إمَّا من الأبرار أو من المحسنين.

ولا يكون برّاً إلاَّ من كان متقياً، ولا يكون محسناً إلاَّ من كان براً.

جائزة عباد الرحمن:

١٦ - ﴿أُوْلَـٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلغُرْفَةَ بما صَبَروا، وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحيَّةً وَسَلامًـا، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتقرًا وَمُقاماً﴾.

في هذا الختام للنصّ بيان بعض ثواب عباد الرحمن عند ربهم يوم الدين.

أولئك: أي أولئك عباد الرحمن الذين هم لارتفاع منزلتهم عن سائر المتقين حَسُن أن يُشار إليهم بإشارة البعيد.

يُجْزون الغُرْفَة: أي يجازيهم الله يوم القيامة بأن يكون لهم في جنَّات النعيم الغرفة، وهذه الغرفة لا بدَّ أن تكون منزلة رفيعة من منازل الجنات، لأن الغُرفات في أبنية الدنيا تكون فوق الأبنية الأرضية، وقد عُرِّفت الغرفة

بالألف واللام إشارةً إلى كمالٍ ونعيم فيها لا يوجد في غيرها من غرف الجنة.

أي: فهم في الجنة في منزلة رفيعة تناسب ارتفاع منزلتهم بعملهم، إلى مرتبة الأبرار أو المحسنين في الدنيا.

ولكن أين تكون هذه الغرفة من جنات النعيم؟.

ونقرأ في سورة (مريم ١٩) قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَامًا، وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣)﴾.

فجنَّات عدْنٍ هي التي وعد الرحمن عباده بالغيب، إذن فعباد الرحمن لهم جنات عدن، وهذا يدلُّ على إن الغرفة التي يُجزونها هي من جنات عدن، ومن خصائصها إنهم لا يسمعون فيها لغواً إلَّا سلاماً، ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً.

وجنات عدنٍ هذه منازل رفيعة في عموم الجنة التي يجعلها الله ميراثاً لعباده المتقين.

بما صبروا: أي بسبب صبرهم على فعل الطاعات، وترك المخالفات.

وباستعراض النصوص القرآنية التي ذكرت فيها جنات عدن نلاحظ أنها الجنات التي وعد الله بها أهل السبق من المؤمنين:

أ - فهي للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الصف ٦١):

﴿يَا أَيُّها ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِنْ عَذَابٍ

أَلِيمٍ؟ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، ذَلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١٢)﴾.

ب ـ وهي للمؤمنين الذين يتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، قال الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة ٩):

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ، وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ، وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ، وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ، أُولَـٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ، ذَلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٧٢)﴾.

فهذه جنات عدنٍ قد اصطفاها الله جلّ وعلا للمؤمنين السابقين في الخيرات، فوق الأعمال التي تقتضيها مرتبة التقوى.

وإذا كان لعباد الرحمن الغرفةُ في جنات عدن، وإذا كانت مساكن طيبة في جناتِ عدنٍ للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وللمؤمنين الذين يتآمرون بالمعروف ويتناهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، فإن لمن دون هؤلاء من المؤمنين غرفاً دون الغرفة ودون المساكن الطيبة في جنات عدن، وهذه الغرف هي في منازلهم التي تتناسب مع أعمالهم في الحياة الدنيا.

قال الله عز وجلّ في سورة (العنكبوت ٢٩):
﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ

تَحْتِها الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ (٥٨) ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٥٩)﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الزمر ٣٩):

﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها ٱلأَنْهَارُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيْعَادَ (٢٠)﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ ٣٤):

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧)﴾.

فالمنازل في دار النعيم بحسب الأعمال، وكلُّها بفضل الله عزّ وجلّ.

نظرة عامة:

١ ـ يلاحظ إنَّ الصفات التي ذكرتها سورة الفرقان تشتمل على صفات أساسية هي من صفات مرتبة المتقين، إشارة إلى إنَّ الانتقال إلى مرتبة الأبرار والمحسنين، ومنهم فئة عباد الرحمن، لا يتحقق دون التحقق أوّلاً بالصفات الكلية الكبرى التي هي من صفات مرتبة المتقين.

فما جاء في غضون استعراض صفات عباد الرحمن من كونهم لا يدعون مع الله إلّهاً آخر، ولا يقتلون النفس الله إلّا بالحق، ولا يزنون، ولا يشهدون الزور، وإذا ذُكّروا بآيات الله لم يخرّوا عليها صمّاً وعمياناً، كلّها مشروطة في مرتبة التقوى، قبل الانتقال إلى ما فوقها، وهما مرتبة البرّ، ومرتبة الإحسان، لكن لمّا كانت شروط وأركان المرتبة الأولى شروطاً وأركاناً أيضاً للمرتبة الأعلى، كان لا بدّ من ذكرها أو الإشارة إلى أهمها، لقياس سائر الشروط والأركان عليها.

وما جاء في غضون استعراض صفات عباد الرحمن من كونهم يدعون

الله بقولهم: ربَّنا اصرف عنا عذاب جهنّم إنَّ عذابها كان غراماً، وبقولهم: ربَّنا هب لنا من أزواجنا وذُرّياتنا قُرَّة أعيُن.

أمر يشترك فيه جميع المؤمنين من كلّ مراتبهم، حتى الذين لم يستوفوا شروط مرتبة التقوى، بل خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً أو أسرفوا على أنفسهم ظالمين لها.

أمَّا الصفات التي هي من صفات الأبرار والمحسنين، وتؤهل بعد التحقق بمرتبة التقوى للدخول في فئة عباد الرحمن فهي:

١ ـ إنهم يمشون على الأرض هوناً.
٢ ـ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاماً.
٣ ـ وإنهم يبيتون لربّهم سُجّداً وقياماً.
٤ ـ وإنَّهم إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً.
٥ ـ وإنَّهم إذا مرُّوا باللغو مرُّوا كراماً.
٦ ـ وإنَّهم يدعون الله أن يجعلهم أئمة للمتقين.

٢ ـ كلّ الآيات القرآنية التي جاء فيها نداء للذين آمنوا وجاء فيها ترتيب عقاب أو تهديد به على مخالفة ما جاء به التكليف في الآية فطاعته من صفات مرتبة المتقين، وهذه الطاعة شرط للانتقال إلى مرتبة الأبرار فمرتبة المحسنين، واستحقاق الدخول في فئة عباد الرحمن.

وكلّ الأحكام والشرائع القرآنية التي اقترنت بالأمر بتقوى الله، أو بمثل قول الله تعالى: ﴿لعَلَّكُم تَتَّقُون﴾ فطاعة الله فيها من صفات مرتبة المتقين، وهذه الطاعة بوجه عام، مع تجاوز الرحمن عن فلتات ذنوب مستتبعة بالتوبة، هي شرط للانتقال إلى مرتبة الأبرار فمرتبة المحسنين، واستحقاق الدخول في فئة عباد الرحمن.

٣ ـ لا يشترط للاحتفاظ بالمرتبة العليا، أو الدخول في فئة عباد الرحمن، عدم الوقوع مطلقاً بالمعاصي المنافية لشروط مرتبة التقوى، فعوارض المعاصي دون إصرار، إذا لاحقتها التوبة والاستغفار والحسنات المذهبات للسيئات ، لا تخرج المؤمن من مرتبة إيمانيَّةٍ احتلّها بعمله وصبره وجهاده، وفضل الله عليه، وهذا كرم من الله يراعي الله فيه حالة الضعف البشري مهما استقام الإنسان على الطاعات، واستزاد من أعمال البرّ والإحسان، وجاهد للاتصاف بصفات عباد الرحمن.

خَـاتِمَـة

هذا ما فتح الله به عليّ من فهم خلال تدبّري للآيات القرآنية التي تعرّضت لبيان صفات عباد الرحمن.

وكتاب الله العظيم معين ثرّ لا ينضب، وبحرٌ عظيم لا يُسْبَر سبراً شاملاً ولا يُدْرَك غوره.

ولكن يغرف منه كلّ باحث متدبر على مقدار وعائه، ويتتابع المغترفون، ويستخرج من كنوزه الثمينة المستخرجون، ويظل فيه حتى آخر الدهر كنوز فكرية، وحقائق علمية، وهداية وتوجيه للطالبين الباحثين.

إنّه حقًّا كما قال الرسول ﷺ في وصفه: «لا تفنى عجائبه، ولا يَخْلَق على كثرة الرّد».

اللَّهُم أفض علينا من علمك الذي أودعت فيضاً منه في كتابك، وألهمنا حسن التدبّر، وحسن الاتّعاظ، وحسن العمل، وصدق النيَّة، والإخلاص لك، والعمل بمراضيك.

وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مكة المكرمة في أوائل محرم من سنة ١٤٠٦ هجرية

عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني

أستاذ بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

المحتويات